محمود شلتوت

القرآن والقتال

الناشر
دار الفتح للطباعة والنشر
بيروت - لبنان



القرآنُ والقِتَال

الطبعة الثانية

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ـ قال لي صديقي العالم؛ . . . كيف تقول في ردِّك على مصطفى جحا[1]: لا إكراه في الدين ؟

قلت له : يا صاحبي لست أنا الذي جئت بهذا القول، بل القرآن الكريم يقول ذلك !

قال : ولكن هذه الآية منسوخة بآية السيف!

---

١ ـ رسالة محنة العقل في الإسلام
أم محنة الإسلام في عقول أدعيائه؟!

قلت : ومن نسخهـا؟

قـال : كثير من العلماء يقولون بنسخها.

قلت : لا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم، ثم تركته وانصرفت.

الإسـلام دين السلم والسـلام، دين المحبـة والوئام. «وأول ما يلاحظ فيه اشتقاق اسمه من مادة **«السلام»** والإسلام والسلام من مادَّة واحدة، وليس الإسلام إلاّ خضوع القلب والروح والجسم لنظام الحقِّ والخير، واستسلام المسلم لمالك الأمر في الدنيا والآخرة.. للهِ ربِّ العالمين.

ومن أسماءِ الله في القرآن **«السلام»** ﴿هو اللهُ الذي لا إلٰه إلاّ هُوَ الملكُ القدُّوسُ **السلامُ** المؤمنُ المهيمن﴾[٢]، ومن هنـا كثـر في المسلمين إسم

---

٢ ــ الحشر : ٢٣.

«عبد السلام» وهي ظاهرة لا توجد في غير المسلمين.

وتحيّة المسلمين حين يلقى بعضهم بعضاً: «**السلام عليكم ورحمة الله**» وهي تحيّة المسلم لنبيِّه في الصلاة: «**السلام عليك أيُّها النبيُّ ورحمة الله وبركاته**»، وتحيّة المسلم لإخوانه في عالم الخير والحقِّ في الصلاة أيضاً: «**السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالحين**» وشعار المسلم حين ينتهي من صلاته عن يمينه ويساره «السلام عليكم ورحمة الله» ومن الذكر الوارد بعد الصلاة «**اللهم أنتَ السلامُ ومنك السلام**».

وأحد أبواب المسجد الحرام في مكة المكرمة، وأحد أبواب المسجد النبوي في المدينة المنورة يسمَّى «**باب السلام**» ودار الجنَّة وهي مثوى

الطائعين في الحياة الآخرة تسمّى «دار السلام» ﴿لهم دار السلام عند ربّهم وهو وليُّهم بما كانوا يعملون﴾[٣] وتحيّة المؤمنين في الآخرة يوم لقائهم لله هي السلام **﴿تحيَّتُهُم يومَ يلقونَهُ سلام﴾**[٤].

ومن تتبَّع آيات القرآن وجد أنَّ «**السلم**» وما **اشتقّ منه ورد فيما يزيد على ١٣٣ آية، بينما لم يرد لفظ** «**الحرب**» في القرآن كله إلاَّ في ستٍّ آيات فقط، ونستطيع أن نؤكّد أنَّ فكرة «**السلام**» تحتلُّ المقام الرئيسي بين أهداف الإسلام العامَّة، بل يصرِّح القرآن بأنَّ الثمرة المرجوة من اتِّباع الإسلام هي الاهتداء إلى طرق السلام والنُّور: ﴿قد جاءكم مِنَ اللهِ نُورٌ وكتابٌ مُّبينٌ يهدي به اللهُ مَنِ

---

٣ ــ الأنعام : ١٢٧.
٤ ــ الأحــزاب : ٤٤.

اتَّبع رضوانَهُ سُبُلَ السلام، ويُخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنِهِ، ويهديهم إلى صراطٍ مُستقيم﴾[5] »[*].

ومنذ أيام قرأت رسالة بعنوان «الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ: بعثتُ بالسيف بين يدي الساعة»[6] للعلامة المحقق زين الدين عبد الرحمن ابن رجب الحنبلي، لفت نظري فيها حديث نُسِبَ إلى الرسول الكريم يقول: «**بُعثت بالسيف بين يدي الساعة حتّى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل**

---

٥ ـ المائدة : ١٥ ـ ١٦.

(*) رسالة نظام السلم والحرب في الإسلام، للدكتور مصطفى السباعي رحمه الله ـ منشورات المكتب الإسلامي ـ بيروت.

٦ ـ رسالة الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ «بعثت بالسيف بين يدي الساعة» من منشورات المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م، وتقع في ٦٤ صفحة من القطع الوسط.

رزقي تحت ظِلِّ رمحي، وجعل الذِّلَّة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[7].

وقد عرضت هذا الحديث على كتاب الله عزّ وجل الذي هو ميزان الحديث فوجدت الحقائق التالية:

١ ــ أنّ الله عزّ وجل بعث محمداً ﷺ رحمةً للعالمين:

﴿وما أرسلناك إلاَّ رحمةً للعالمين﴾[8].

٢ ــ أنّ الله سبحانه حدَّد رسالة رسوله بالدعوة

---

٧ ــ جاء في متن الرسالة أن هذا الحديث أخرجه أحمد من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، كما جاء في الحاشية: صحيح الجامع الصغير (٢٨٢٨) وإرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (١٢٦٩) طبع المكتب الإسلامي، وقد حكم الشيخ ناصر الدين الألباني بصحة هذا الحديث!!

٨ ــ الأنبياء : ١٠٧.

إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن ﴿أُدعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[9].

٣ ـ أنَّ الله تبارك وتعالى ترك للإنسان حرِّية الاختيار بين الطاعة والمعصية، والإيمان والكفر:
﴿ونفسٍ وما سوّاها فألهمها فُجُورَها وتقواها﴾[10]، ﴿وَقُلِ الحقُّ من ربِّكم، فمن شاءَ فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾[11]، ﴿ولو شاءَ ربُّك لآمن من في الأرض كُلُّهم جميعاً أفأنتَ تُكرِهُ النَّاسَ حتَّى

---

٩ ـ النحل : ١٢٥.
١٠ ـ الشمس : ٧ ـ ٨.
١١ ـ الكهف : ٢٩.

يكـونـوا مؤمنين﴾[١٢]، ﴿لا إكــراهَ فِي الدِّينِ، قد تبيَّن الرُّشْدُ مِنَ الغيِّ﴾[١٣].

﴿وقيله يـا ربِّ إنَّ هـؤلاءِ قـومٌ لا يؤمنون، فاصفـحْ عنهم وقل: سـلام، فسوف يعلمون﴾[١٤]، ﴿قُل للذين آمنوا يغفروا لِلَّذينَ لا يرجون أيَّام الله﴾[١٥].

٤ ــ أنَّ القرآن الكريم حـدَّدَ وظيفة الـرسول ضمن إطـار الـدعـوة والإنـذار والبــلاغ والتذكير:

﴿يا أيُّها النبيُّ إنّا أرسلناكَ شاهداً ومبشِّراً ونذيراً،

---

١٢ ــ يونس : ٩٩.
١٣ ــ البقرة : ٢٥٦.
١٤ ــ الزخـرف : ٨٩.
١٥ ــ الجاثيـة : ١٤.

وداعياً إلى الله بإذنِهِ وسراجاً منيراً،
وَبَشِّرِ المؤمنين بأنَّ لهم من الله فضلاً
كبيراً﴾[16]

﴿إن أنتَ إلاَّ نذير﴾[17]

﴿فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً
إن عليك إلاَّ البلاغ﴾[18]

﴿وما على الرسول إلاَّ البلاغُ
المبين﴾[19].

﴿فهل على الرُّسُلِ إلاَّ البلاغ

---

١٦ ــ الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٦.
١٧ ــ فاطر : ٢٣.
١٨ ــ الشورى : ٤٨.
١٩ ــ النور : ٥٤.

المبين﴾[20].

﴿وما علينا إلاَّ البلاغُ المبين﴾[21].

﴿فإنَّما عليك البلاغ
وعلينا الحساب﴾[22].

﴿فذكِّر إنَّما أنت مذكِّر
لست عليهم بمسيطر،
إلاَّ من تولَّى وَكَفَرَ، فيعذِّبُهُ اللهُ العذابَ
الأكبرَ،
إنَّ إلينا إيابهم،
ثم إنَّ علينا حسابهم﴾[23].

* . . * . . *

---

٢٠ ـ النحل : ٣٥.
٢١ ـ يسٓ : ١٧.
٢٢ ـ الرعد : ٤٠.
٢٣ ـ الغاشية : ١٧ ـ ٢٦.

فمن أين جاء السيف، والإكراه، ومن أين جاء حديث الذبح أيضاً في تلك الرسالة: «أتسمعون يا معشر قريش: أما والذي نفسُ محمَّدٍ بيده، **لقد جئتكم بالذبح**»!![24].

هل هذا معقول يا أصحاب العقول؟

هل يعقل أن يقول الرسول شيئاً يخالف القرآن الكريم؟

ألم يقل الرسول الكريم في فتح مكة: يا معشر قريش: ما تظنُّون أنِّي فاعل بكم؟

قالوا: خيراً، أخٌ كريمٌ، وابن أخٍ كريم،

قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء!!

---

٢٤ ــ جاء في رسالة «الحكم الجدير بالإذاعة» ص٧ هذا الحديث، وقد جاء في الحاشية: مسند الإمام أحمد ٢ / ٢١٨ ـ ٣٦٠ والنسائي.

أين هذا من السيف والذبح والإكـراه ؟!

﴿أفلا يتدَّبرون القرآن ؟ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾[٢٥].

وهذه رسالة (القرآن والقتـال) للشيخ محمـود شلتوت رحمه الله، وهو عالم كبير، مفسِّر، ولد في منية بني منصور (بـالبحيرة) وتخـرّج بالأزهـر عام ١٩١٨ وتنقَّـلَ في التدريس إلى أن نقـل للقسم العالي بالقاهرة ١٩٢٧، وكان داعية إصلاح، نيِّر الفكـرة، نادى بفتـح باب الاجتهـاد، وسعى إلى اصلاح الأزهر، فعارضه بعض كبار الشيوخ، وطُرِدَ هـو ومنـاصـروه، فعمـل في المحـامـاة (١٩٣١ - ١٩٣٥) وأُعيـد إلى الأزهـر، فعيِّن وكيـلاً لكليـة الشريعة، ثم كان من أعضاء هيئة كبار العلمـاء

---

٢٥ ـ النســاء : ٨٣.

(١٩٤١) ومن أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٤٦) ثم شيخاً للأزهر (١٩٥٨) إلى وفاته (١٩٦٣) وهو من مواليد (١٨٨٣ م).

وكان الشيخ محمود شلتوت خطيباً موهوباً جهير الصوت، وله من الكتب المطبوعة نحو ٢٦ مؤلفاً منها التفسير أجزاء منه في مجلد، ولم يتم، بالإضافة إلى الكتب التالية:

- حكم الشريعة في استبدال النقد بالهدي.
- هذا هو الإسلام.
- عنصر الخلود في الإسلام.
- الإسلام والتكافل الاجتماعي.
- أحاديث الصباح في المذياع.
- من توجيهات الإسلام.

ـ الإسلام عقيـدة وشريعة.

ـ الفتـاوى.

ـ الإسلام والوجود الدولي.

ـ القرآن والقتـال.

وكنت أستمع إليه من الإذاعة المصرية، وأقرأ مقالاته في الصحف والمجلات، وأقرأ كل كتاب يصدر له.

والشيخ محمود شلتوت من الشخصيات النادرة في العالم الإسلامي ومن عمالقة الفكرالإسلامي، ورسالته (القرآن والقتال) جدير بكل مسلم أن يقرأها ويستفيد منها، حتَّى لا يظلم الإسلام أبناؤه بعد أن ظلمه أدعياؤه وأعداؤه!!

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين.

رمضان ١٤٠٣ هـ
حزيران ١٩٨٣ م

عز الدين بليق

الْقُرْآنُ وَالْقِتَال



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾

مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسۡتَعِينُ ﴿٥﴾ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿٦﴾

صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ

عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

المقــدِّمــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربِّ العالمين. والصلاةُ والسلام على سيدنا محمد الذي بعثه الله رحمةً للخلق أجمعين، وأنزل عليه القـرآن تبيانـاً لكل شيء، فـرسم للناس حـدود العقيدة الصحيحة، ودوائر الأخلاق الفاضلة، وأرشـدهم إلى ما ينظِّمونَ به علاقة بعضهم ببعض على وجه يدفع الطغيان، ويحفظ الحقوق.

وبعد، فهذا بحث عن القتال في نظر القرآن، ألقيته

في محطة الإذاعة اللاسلكية المصرية من سنين في سلسلة من المحاضرات، وأردتُ نشره على الناس مرة أُخرى في رسالة مطبوعة ليتمكَّنوا من قراءَتِهِ فينتفع به من يحتاج إليه، ويبدي رأيه فيه من يرى ذلك.

وقد ضمنت مقدِّمته بيان الطريقة المثلى في نظرنا لتفسير القرآن الكريم، وألمعتُ إلى السبب الذي حملني على اختيار هذا الموضوع من بين موضوعات القرآن.

أما البحث فقد تناول:

طبيعة الدعوة الإسلامية ـ القرآن ومشروعية القتال ـ القرآن وتنظيم القتال وأحكامه المبدئية والنهائية.

ثم ذيَّلْتُ فصول هذا البحث بخاتمةٍ بيَّنتُ فيها أنَّ القتال العملي الذي قام به الرسول ﷺ في غزواته. وقام به خليفتاه من بعده في حروبهما كان تطبيقاً صحيحاً لما

قرَّره القرآن في تشريع القتال وتنظيمه وأحكامه لم يحد عنه قيد أنملة.

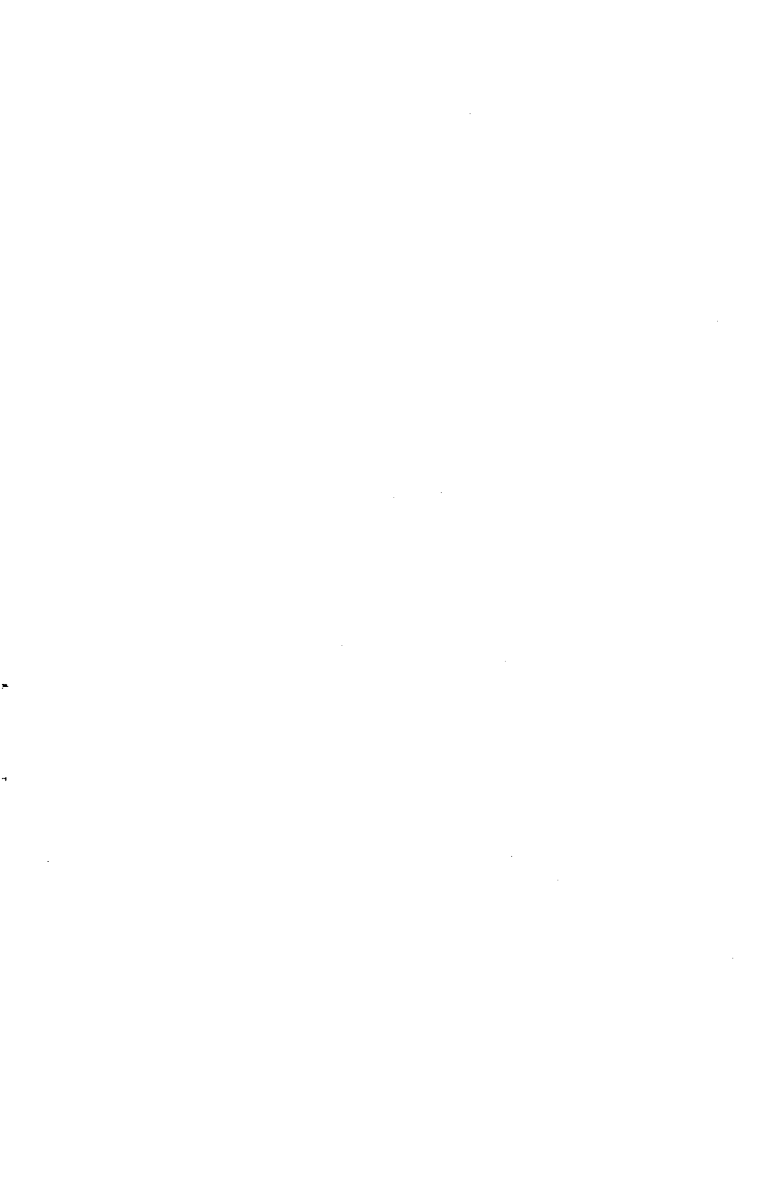
وهذا ما ستقرأ تفصيله في هـــذه الرسالة وأرجو أن يكون الله قد ألهمني فيما كتبتُ الرشد والسداد.

﴿ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.

محمود شلتوت

شوال سنة ١٣٧٠ هـ

يوليو سنة ١٩٥١ م



الطريقة المثلى في تفسير القرآن

لتفسير القرآن الكريم طريقتان: -

إحداهما: أن يسير المفسِّر بتفسيره مع آياتِ الذكر الحكيم وسوره على الترتيب القرآني المعروف، فيفسِّر المفردات، ويربط بين الآيات، ويبيِّن المعاني التي تدلُّ عليها.

وهذه هي الطريقة التي عهدها الناس منذ كان التفسير وكان المفسِّرون. ومن مظاهرها اختلاف طرق التفسير باختلاف روح المفسِّرين: فمن غلبت عليه روح العلوم البلاغية عنى في تفسيره بالتطبيق على قواعدها، ومن

غلبت عليه روح النحو والصرف، عنى في تفسيره بإعراب الكلمات وتصريفها، ومن غلبت عليه الروح التاريخية، عنى بالقصص والأخبار وربما أسرف فأدخل في التفسير كثيراً من الإسرائيليات دون تحقيق ولا تمحيص، ومن غلبت عليه الروح الفلسفية حبّب إليه البحث في الكائنات، وعنى في تفسيره بهذا الجانب، ومن غلبت عليه روح الجدل الكلامي أو الفقهي تأثّر تفسيره بما غلب عليه، وهكذا. . . وبهذه الأساليب المختلفة المتأثرة بهذه الاتجاهات المتعدِّدة، صعب على الناظر في هذه التفاسير أن يجد هداية القرآن على الوجه الذي يطمئن إليه قلبه، ويشقّ له طريق الحياة ويلهمه الرشد والسداد.

ولقد نجم عن هذه الطريقة أنْ عدل ببعض الآيات عن معانيها وأغراضها التي سيقت لها، أو حكم فيها معنى لا تحتمله قضى عليها بالنسخ. وكثيراً ما تفسّر الآية على

مقتضى القواعد الأصولية التي استخلصها أرباب المذاهب من الفروع الفقهية واتَّخذوها أُصولاً تحاكموا إليها في فهم القرآن والسنَّة واستنباط الأحكام، ولم يقف ذلك عند التشريع وآيات الأحكام، بل تعدَّى إلى العقائد وآراء الفرق، فتراهم يقولون: هذه الآية لا تتَّفق ومذهب أهل السنَّة فهي مؤوَّلة بكذا وكذا، كما يقولون: هذه الآية لا تتَّفق ومذهب الحنفية وتأويلها كذا وكذا، وكما يقولون: هذه الآية أو تلك الآيات - وربما نيفت على السبعين - لا تتَّفق ومشروعية القتال فهي منسوخة.. !

وهكذا صار القرآن فرعاً بعد أن كان أصلاً، وتابعاً بعد أن كان متبوعاً، وموزوناً بغيره بعد أن كان ميزانا.

يقول الله تعالى: ﴿ فإن تنازعتم في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ والرسولِ إن كنتم تُؤمنونَ باللهِ واليومِ

الآخِرِ ﴾[1].

والردُّ إلى الله هو الردّ إلى كتابه، والردّ إلى الرسول هو الردّ إلى سنّته الصحيحة؛ ولكن هؤلاء عكسوا القضية، وقلبوا التشريع، وردُّوا كتابَ الله وسُنَّة رسوله إلى ما لهم من آراء، وما لمقلِّديهم من مذاهب..

وقد نقل الفخر الرازي وهو بصدد تفسير قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ عن شيخه خاتم المحقِّقين والمجتهدين: (قد شاهدت جماعة من مقلِّدة الفقهاء قرأتُ عليهم آيات كثيرة من كتاب الله في بعض مسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها، وبقوا ينظرون إليَّ كالمتعَجِّب، يعني كيف يمكن العمل

---

(1) النساء : ٥٩.

بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها !).

وكما نقل الرازي عن شيخه هذا، نقل غيره عن كثير من العلماء كالغزالي والعزّ بن عبد السلام، مثله وأكثر منه.

* * *

كانت هذه الأساليب الملتوية في تفسير القرآن، وهذه النكسة التي أُصيبت بها علاقة القرآن بالفقه والعقائد، سبباً في حدوث فوضى فكرية فيما يتَّصل بالقرآن ومعاني القرآن، وكان لهذه الفوضى أثرها في إعراض الناس عن القرآن، وعن الاستماع لمفسِّري القرآن.

أما الطريقة الثانية فهي: أن يعمد المفسِّر أولاً إلى جمع الآيات التي وردت في موضوع واحد ثم يضعها أمامه كموادّ يحلِّلها ويفقه معانيها، ويعرف النسبة بين

بعضها وبعض، فيتجلَّى له الحكم ويتبين المرمى الذي ترمي إليه الآيات الواردة في الموضوع، وبذلك يضع كل شيء موضعه، ولا يكره آية على معنى لا تريده كما لا يغفل عن مزية من مزايا الصوغ الإلهي الحكيم.

وهذه الطريقة في نظرنا هي الطريقة المثلى، وخصوصاً في التفسير الذي يراد إذاعته على الناس بقصد إرشادهم إلى ما تضمَّنه القرآن من أنواع الهداية، وإلى أنَّ موضوعات القرآن ليست نظريات بحتة يشتغل بها الناس من غير أن يكون لها مُثُلٌ واقعية فيما يحدث للأفراد والجماعات من أقضية، ويتَّصل بحياتهم من شؤون.

وهي تمكِّن المفسِّرُ من علاج موضوعات عملية كثيرة، كل موضوع منها قائم بنفسه لا يتَّصل بسواه، ولا يختلط بغيره فيعرف الناس موضوعات القرآن بعناوينها الواضحة،

ويعـرفون مقـدار صلة القرآن بحيـاتهم الواقعيـة: القرآن وأصول التشريع، القرآن والعلم، القرآن والأسرة، القرآن وأدب الاجتماع. القرآن والسياحة، القـرآن والاقتصاد. القرآن والتضحية، القرآن والبرّ، وهكـذا إلى آخر مـا يمكن عرضه من موضوعات القرآن التي تعتبر بحق عُمُداً قويَّة في بناء الأُمَّة ونهضتها. وبهذا يطمئن الناس بطريقة عملية واضحة إلى أن القرآن ليس بعيداً عن حياتهم، ولا عن نواحي تفكيرهم، ولا عن مشكلاتهم التي تعرض لهم في كل حين، يطمئنون إلى أن القرآن ليس كتاباً روحياً فقط مهمته أن يشرح طرق القربى إلى الله من غير أن يُعنى بشيء من وسائل الحياة.

ولقد سَرَتْ هذه الفكرة الخبيثة الباطلة في نفوس كثير من الناس من حيث لا يشعرون، ليس عند سواد الناس وعامَّتهم فقط ولكن عند كثير ممن يزعمون لأنفسهم أو

يزعم الناس لهم تفقهاً في الدِّين أو ثقافةً ونبوغاً في الحياة

ولقد أصبح القرآن بهذا في نظر هؤلاء وهؤلاء كالأوراد يعكف عليها طوائف المريدين في أوقات الخلوة، واكتفوا منه بتلاوته، والاستماع إليه، والتعوُّذ به. والاستشفاء من الأمراض.

إنهم بهذا ظلموا القرآن. وظلموا أنفسهم وعقولهم. وظلموا الحياة الطيِّبة. وحرموها ينبوعاً لا ينتهي فيضه في العلم. والحكمة. والتشريع. والسياسة. والتربية. والتهذيب. وكل ما تعالج به شؤون الحياة[٢]. ﴿ إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هيَ أقومُ ويبشِّرُ المؤمنينَ الذينَ يعملونَ

---

(٢) عرضت لهذا الموضوع في محاضرة ألقيتها في جمعية الشبان المسلمين ونشرتها مجلة الرسالة في العددين ٤٠٧، ٤٠٨ من السنة التاسعة.

الصَّالحاتِ أنَّ لهم أجْرَاً كبيراً ﴾[٣].

وإذا كانت هذه الطريقة التي رسمناها تجود على الناس بتلك الثمرات الطيِّبة، وتَقِيهم سوء الظن بكتاب الله وتشريعه، فإنها تضع المفسِّر أمام الموضوع الذي يريد أن يعالجه وجهاً لوجه، وتلقيه في البيئة الخاصة به من الآيات، فيستعينُ ببعضها على تفسير بعض. وإن أقْوَمَ تفسير للقرآن هو ما استقاه المفسِّر مِنَ القرآن نفسه.

وكثيراً ما يغيبُ عَنِ الناظر في القرآن السِّرّ في آية معيَّنة حتى إذا ما سمع زميلتها الواردة في موضوعها علم ما غاب عنه، وانكشف أمامه ما كان خافياً عليه.

* * *

وقد رغبنا ورغِبَ أهلُ البصيرة في العلم، أن يعرض

---

(٣) الإسـراء : ٩

تفسير القرآن على هذه الطريقة الجديدة، فتُعْرَفُ موضوعات القرآن، وتُبْحَث بحثاً نقياً، بريئاً مِنَ الشوائب التي من شأنها أن تستر الحق أو تشوِّه جماله، بعيداً عن الطريقة الملتوية، منزّهاً عن الأقاصيص الدخيلة والخيالات التي لا يزكّيها عقل ولا حقيقة.

وأرجو أن يجدَ النَّاسُ في هذا النحو الجديد من التفسير ما تصبو إليه نفوسهم من تعرُّف هداية القرآن والوقوف على أسراره وحكمه، والانتفاع بمبادئه وتعاليمه، وقد عرضتُ منذ سنوات على هذا النحو موضوع: «**القرآن والمرأة**»، وأظنُّ أنَّ الذين قرأوه بإخلاص قابلوه بصدر رحب وقلب مطمئن.

وقد رأيتُ أن يكون أوّل موضوع أعرضه الآن على هذه الطريقة بعد «**القرآن والمرأة**» موضوع: «**القرآن**

والقتال». ذلك لأن للقتال في هذا الوقت شأناً واقعياً ملأ الدنيا وشغل الناس وله في سائر الأوقات شأن نظري يلوكه كثير من أرباب الأديـان في الطعن على الإسـلام. فما أحوج الناس في وقتهم هذا وفي سائر الأوقات إلى معرفة أحكام القرآن في القتال. وفي أسبابه التي تحمل عليه. وغايته التي بها تضع الحرب أوزارها. وتلقي عن كاهل الناس أثقالها،ما أحوجهم إلى معرفة ذلك ليعلموا مقدار حكمة القرآن في القتال. وحرص الإسلام على السلام، وكراهته لإراقة الدمـاء وإزهاق الأرواح في سبيـل الأثرة بحطامٍ ليس له بقاء، والطمع الذي أساسه الشره وحبّ الاغتيال، وليعلم هؤلاء الذين يروِّعون العالم من وقت لآخر بحروبهم الفاتكة مقدار انحرافهم العملي عن دينهم الذي يعتقدون أنه دين السلم والسلام دون غيره من الأديان، وهل يقبل في نظر العقل أنَّ الدين الذي يدعو

إلى السلم، ويطلب إلى الناس تسخير ما وهب الله لهم فيما ينفع لا فيما يضرّ وفيما يعمر لا فيما يخرب، يرضى من معتنقيه أن يروِّعوا العالم هـذا الترويـع الذي يخلع القلوب، ويـذيب الأفئدة. ويحـوِّلُ المدن العـامـرة إلى خراب، والمدنيات الراقية إلى فناء، والحضارات المزدهرة إلى دمار، بينما يقولون بألسنتهم. إن دينهم دين السلام، وإن غيره دين الحرب والنصال، قام بالسيف وأُسِّسَ على الإكراه !؟

* * *

طبيعة الدعوة الإسلامية

لتكن أول لبنة نضعها أساساً لعرض هذا الموضوع، معرفة طبيعة الدعوة الإسلامية وهل هي بحاجةٍ إلى إكراه الناس عليها ؟

قد يُدعى الإنسانُ إلى اعتناق مبدأ فيسارع إليه ويؤمن به، عن اطمئنان وارتياح وقد يكلّف اعتقاد مبدأ آخر فيشقّ عليه وينفر منه. هاتان ظاهرتان نراهما في حياتنا، ونعرفهما من أنفسنا فما سبب ذلك ؟

سببه واضح، فكلَّما كانت الحقيقة التي يُدعى إلى اعتناقها يسيرة سهلة لا تعقيد فيها ولا تكلُّف، ولا تحمل

في ظاهرها ولا في باطنها ما يصدم الفطرة البشرية كانت حقيقة واضحة تدعو لنفسها ولا تحتاج إلى ما يحمل الناس عليها، وكُلَّما كانت معقَّدة متناقضة ملتوية كانت مشكلة مظلمة. في طبيعتها ما يذود الناس عنها، ويصرف العقول عن النظر فيها، ومثل هذه تحتاج في اعتناق الناس لها إلى وسيلة تفرضها عليهم فرضاً، وتلجئهم إليها إلجاءً. وإذا كان هذا شأناً ملموساً في النفوس. فلننظر من أي نوع من هذين النوعين طبيعة الدعوة الإسلامية.

أرسل الله مُحمداً على فَترةٍ من الرسل: داعياً ومبشراً ونذيراً وأوحى إليه كتاباً جَمَعَ بين دفَّتيــه أُصول السعادة للأمة والفرد: أمر بتحكيم العقل، عظَّم من شأن البرهان، حبَّب في العلم والمعرفة، فصَّل الأحكام، شرَّع الحدود، دعا إلى الرحمة، رغَّب في الخير، حضَّ على السلام، رفع الحرج، وتوخَّى اليُسْر، أحكم أُصُولَ السياسة وقواعد

الاجتماع، حارب البغي والفساد، حارب الركود العقلي، نعى على الاستنامة إلى ما درج عليه الآباء، صاح في الناس أنَّ لهم حياةً أُخرى أسمى من هذه الحياة، فيها النعيم الدائم، والخلود الأبدي، وأن منتهى الإنسان من مبدئه، وآخرته من دنياه.

على هذا النحو كانت دعوة الرسول محمد ﷺ، وكان أوّلها وأساسها **توحيد الخالق**، والتوجُّه إليه وحده بالعبادة، والإيمان به منزَّهاً عن شوائب النقص والاحتياج والمماثلة لشيء من خلقه: ﴿بديعُ السّمٰوٰتِ والأرضِ أنَّى يكُونُ له وَلَدٌ ولم تَكُن لَّهُ صاحبَةٌ. وَخَلَقَ كُلَّ شيءٍ. وَهُوَ بكلِّ شيءٍ عليم. ذٰلِكُمُ اللهُ رُّبكُمْ لا إلَه إلَّا هُوَ، خالِقُ كُلِّ شيءٍ فاعبُدُوهُ، وَهُوَ على كُلِّ شيءٍ وكيلٌ لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وهو يُدْرِكُ الأبْصَارَ وَهُوَ اللطيفُ

الخبيرُ ﴾(١).

وأرشدَ إلى أنَّه يُريد بذلك تكريم الإنسان ورفعه عن أن يعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يضرُّ ولا ينفع. وأعلن أنه يقرِّر بتلك الدعوة سائر الأديان التي سبقته. وأنه لا يخالفها في أصل جاءت به وأنه لا يفرِّق بين رسول ورسول. الكلُّ يقرِّر التوحيد. والكلُّ يدعو إلى عبادة الله؛ والكلُّ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والكلُّ يدعو إلى الفضيلة وينفر من الرذيلة: ﴿قولوا آمنَّا باللهِ وما أُنْزِلَ إلينا وما أُنْزِلَ إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ ويعقوبَ والأسباطِ وما أُوتِيَ موسَى وعيسَى وما أُوتِيَ النبيُّونَ من ربِّهِمْ لا نفرِّقُ بين أَحَدٍ منهم ونحنُ له مُسْلِمُونَ. فإن آمنوا بمثلِ ما آمنتم به فقد اهتَدَوْا وإن تَوَلَّوا فإنَّما هُمْ في شِقاقٍ

---

(١) الأنعام : ١٠١ ـ ١٠٣.

فسيكفيكهُمُ اللهُ وهو السميع العليمُ ﴾[٢]، ﴿قل يا أهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينَكم. ألاَّ نَعْبُدَ إلاَّ اللهَ ولَا نُشْرِكَ به شيئاً، ولا يتَّخِذَ بعضُنَا بعضاً أرباباً من دُونِ اللهِ. فإن تولَّوْا فقولوا اشهدوا بأنَّا مُسلمـون ﴾[٣]، ﴿ولا تجادِلُوا أهْلَ الكتاب إلاَّ بالتي هي أحسنُ، إلاَّ الذين ظلموا منهم وقولوا: آمنَّا بالذي أُنْزِلَ إلينا وأُنْـزِلَ إليكم وإلهُنَا وإلهُكُم واحدٌ ونَحْنُ له مُسْلمون ﴾[٤]، ﴿شَرَعَ لكم من الدِّينِ ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليكَ. وما وصَّينا به إبراهيمَ ومُوسى وعيسى: أن أقيموا الدِّينَ ولا تَتَفَرَّقُوا فيه ﴾[٥]، إلى آخر الآياتِ التي حدَّدت دعوة الإسلام،

---

(٢) آية ١٣٦ ـ ١٣٧ ، البقرة.
(٣) آية ٦٤ ـ آل عمـران.
(٤) آيـة ٤٦ ـ العنكبـوت.
(٥) آيـة ١٣ ـ الشورى.

وهي - كما ترى في تلك الآيات - دعوة واضحة بيِّنة، سهلة خالية من التعقيد. بعيدة عن الغموض والإبهام. لا يعجز عقل عن هضمها ولا يلتوي فكرٌ عن طريقها. وهي دعوة الأديان السابقة. ودعوة الرُّسُل الأوَّلين. وهي نداء الفِطرة، فليست غريبة على العقول. ولا بعيدة عن الافهام: ﴿ صِبْغَةَ اللهِ. ومن أَحْسَنُ من الله صبغةً ﴾[6]، ﴿ فطرةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عليها لا تبديلَ لخلْقِ الله. ذَلِكُ الدِّينُ القيِّم ﴾[7].

هذه هي دعوة الإسلام. فهل مثل هذه الدعوة يحتاج في إيمان الناس بها إلى إكراه؟ إنَّه لمن الإساءة إليها. ومن الصدِّ عنها؛ ومن وضع العراقيل في سبيلها، أن يجعل الإكراه طريقاً من طُرُقِ الإيمان بها، إن الإنسانَ إذا

---

(٦) البقرة : ١٣٨ .

(٧) الروم : ٣٠

شعر أنَّهُ مُكْرَهٌ على شيءٍ، ملجأ إليه صَرَفَهُ ذلك عن تقديره واحترامه والتفكُّر فيه. فضلاً عن الإيمانِ به. فاتِّخاذ الإكراه وسيلة إلى اعتناقها. فيه إلباسها ثوبَ التعقيد والالتواء والغموض، وإبعادٌ لها عن متناول العقول والقلوب، ولا ريبَ أنَّ هذا ظلمٌ لها أي ظلم، وهو في الوقت نفسه من العوامل التي تسيءُ إليها وتقف عثرةً في طريقها، وليس من المعقول أنَّ دعوةً تريدُ لنفسها النَّجاحَ تحْمِلُ في طيَّاتِها عوامل ضعفها وفنائها، أو ما يسيءُ إليها ويشوِّه جمالها.

هذا معنى واضح، كان لنا الاستغناء به، والوقوف عنده مطمئنين إلى تقدير الناس له وتحكيمهم إياه فيما بين الإسلام والقتال من علاقة ولكنَّا لا نكتفي به بل نرجع إلى نصوص الدعوة نفسها فننظر: هل منها ما يعرف الاكراه في العقيدة؟ وهل منها ما يحترم العقيدة التي بُنيت على

الإكـراه؟ يعتقد كـل إنسان أنَّ الجـواب عن هـذا بيِّنٌ واضحٌ، ليس من جهة واحدة، بل من جهات متعددة، ونواح مختلفة:

فالقرآن يرشدنا في وضوح وجلاء إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يرد من الناس أن يكونوا مؤمنين عن طريق القهر والإلجاء، بـل عن طريق النـظر والفكر والتـدبُّر، ويرشدنا مع هذا إلى أنَّه لو أرادَ مِنهم إيماناً كهذا الإيمان لطبعهم عليه، وجعلهم كالملائكة ﴿لا يَعْصُونَ اللهَ مـا أَمَرَهُم ويفْعَلونَ ما يُؤمَرُون﴾[8]، عن طبعٍ وتكوين. لا يملكون الخروج عليه ولا التخلُّصَ منه. ولكنه لم يشأ ذلك بل تَرَكَ الناسَّ وما يختارون لأنفسهم من إيمانٍ أو كفر، وهدايةٍ أو ضلال، واكتفى بأن أَخَذَ عليهم مواثيق

(٨) التحريم: ٦.

الفطرة. وأشهدهم بها على أنفسهم، وأرسل إليهم رسلاً تـذكِّرُهُم، وتـدعوهم إلى النـظر في ملكـوت السمٰـوات والأرض، ﴿ لِئَلَّا يكـونَ للنَّـاسِ على اللهِ حجَّـةٌ بعـد الرُّسُل ﴾[٩]، ، ﴿ أنَ تقـولوا مـا جاءنـا من بشيرٍ ولا نذير ﴾[١٠] وتلك سُنَّةُ الله. قرَّرها كتابه: ﴿ ولو شَاءَ رَبُّكَ لجَعَل النَّاسَ أمةً واحدةً ولا يزالونَ مختلفين إلَّا من رَّحِمَ ربُّكَ، ولذلك خَلَقَهُم ﴾[١١] : ﴿ ولو شاءَ ربُّك لآمَنَ مَنْ في الأرضِ كُلُّهُمْ جميعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ الناسَّ حتى يكونوا مؤمنين ﴾[١٢]، ﴿ ولو شَاءَ الله لجعلكم أمةً واحدةً، ولكن لِيَبْلُوَكُم فيما آتاكم فاستبقُوا الخيرات. إلى اللهِ مرجِعُكُم

---

(٩) النساء : ١٦٥.

(١٠) المائدة : ١٩.

(١١) سورة هود: ١١٨ ـ ١١٩.

(١٢) يونس: ٩٩.

جميعاً فينبِّئُكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾[١٣]، ﴿ وإن كانَ كَبُرَ عليكَ إعراضُهُم فإن استطعتَ أن تبتغي نَفَقاً في الأرض ِ أو سُلَّماً في السَّماءِ فتأتِيَهُم بآيَةٍ ولو شاءَ الله لجمعهم على الهدى. فلا تكوننَّ مِنَ الجاهلين ﴾[١٤].

على هذه السنَّة الكونية، جاءت الشرائع الإلهية تدعو إلى التوحيد، وعبادة الخالق وحده على أساس ِ النظر والاستدلال، وعلى أساس الميل والاختيار، لا سلطان إلا للعقل، ولا قَهْرَ إلا للبرهان. ولا تجد شريعة من الشرائع الإلهية تفرض على الناس الإيمان عن طريق القهر والإلجاء.

استمع إلى نوح وهو يقول لقومه: ﴿ يا قوم ِ : أرأيتُم

---

(١٣) المائدة ـ ٤٨.

(١٤) الأنعام ـ ٣٥.

إن كُنْتُ على بيِّنَةٍ من ربِّي وآتاني رحمةً من عندِهِ فَعُمِّيَتْ عليكم أَنُلْزِمُكُمُوهَا وأنتُم لها كارهون ﴾[15]. ثم استمع إلى قوم عاد وهم يقولون لرسولهم: ﴿ يا هودُ ما جئتنا ببيِّنةٍ وما نحنُ بتاركي آلهتنا عن قولِكَ وما نحنُ لكَ بمؤمنين ﴾[16]. ثم استمع إليه وهو يقول: ﴿ إني تَوَكَّلْتُ على اللهِ ربِّي وربِّكم. ما من دابَّةٍ إلّا هو آخذٌ بناصيتها. إن ربِّي على صراطٍ مستقيم فإن تولَّوْا فقد أبْلَغْتُكُم ما أُرْسِلْتُ به إليكم ﴾[17]. ثم استمع إلى إبراهيم وهو يدعو أباهُ في لطفٍ ولين. عن طريق الحجَّةِ والبرهان وعن طريق الوجدان والعاطفة: ﴿ يا أبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ ولا يُبصرُ ولا يُغني عنكَ شيئاً؟ يا أبَتِ إنِّي قد جاءني من

---

(١٥) هود: ٢٨.
(١٦) هـود: ٥٣.
(١٧) سورة هود ـ ٥٧.

العلم ما لم يَأْتِكَ فاتَّبِعْني أهْدِكَ صِراطاً سويّاً. يا أبَتِ لا تَعْبُدِ الشيطانَ إنَّ الشيطانَ كانَ للرحمٰنِ عَصِيًّا، يا أبَتِ إني أخافُ أن يمسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرحمٰنِ فتكونَ للشيطانِ وليًّا !

قَال أراغبٌ أنتَ عن آلهتي يا إبراهيم؟ لئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأرجمنَّكَ واهْجُرْني مليًّا [18].

قالَ: سلامٌ عليكَ. سأستغفرُ لَكَ ربِّي إنَّه كانَ بي حفيًّا[19] وأعتزِلُكُم وما تدعونَ من دونِ اللهِ، وأدعو ربِّي عسى أن لا أكونَ بدعاءِ ربِّي شقيًّا ﴾[20] .

ثم استمع إلى قول اللهِ لموسى وهارون حين كلَّفهما الدعوة إليه: ﴿ اذهبا إلى فرعونَ إنَّه طَغَى. فقولا لَهُ قولاً

---

(١٨) أي زماناً طويلاً.

(١٩) أي معنيا.

(٢٠) من ٤٣ ـ ٤٧ ـ مريم.

لَيِّناً لعلَّه يتذكَّرُ أو يخشى﴾[21]، اقرأ كل هذا وتأمَّلهُ لتعلمَ أن السلاحَ الذي أعطاهُ اللهُ لرُسُلِهِ المتقدِّمين - وهم يبلِّغون النَّاسَ دعوته - لا يتجاوز البيِّنة الوَاضحَةَ. ولفْتِ الأنظار إلى ما للهِ من آثار، جرياً على سنَّته في الإيمان والكفر. والهداية والضلال.

وقد قصَّ اللهُ كُلَّ ذلك على نَبيِّهِ في كتابه. وبيَّن له طريقة الرسل في الدعوة إليه. وقال له: ﴿ أولئِكَ الذينَ هَدَى اللهُ. فبهداهم اقْتَدِه ﴾[22]، ثم بيَّنَ له وسائل الدعوة في آيةٍ فذَّةٍ جامعة: ﴿ أُدْعُ إلى سبيلِ رَبِّكَ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة. وجادِلْهُم بالتي هي أحسن ﴾[23].

على هذا الأساس كانت دعوة الرسول محمد ﷺ

---

(٢١) طه : ٤٣ - ٤٤.
(٢٢) الأنعام : ٩٠.
(٢٣) النحل : ١٢٥.

إلى ربِّه: ﴿ **قُلْ هذِهِ سبيلي، أدعُو إلى اللهِ على بصيرةٍ أنا ومن اتَّبَعَني. وسبحانَ اللهِ وما أَنَا مِنَ المشركين** ﴾[٢٤].

وإذا كان ما تقدم شأناً ينتظم دعوة محمد ودعوة إخوانه السابقين فإنَّ هناك شيئاً آخر خصَّ اللهُ به شريعة محمد ﷺ إذْ جعله في دعوته أبْعَدُ الرسل عن الإكراه، وعن اتِّخاذِ وسيلةٍ من وسائل الإلجاء إلى الإيمان بطريق لا تعتمد على العقل المجرَّد: ذلك أنَّ الرُّسُلَ الأوَّلين كان يصحب دعوتهم في كثير من الأحيان خوارِق حيَّة من شأنها أن تُلجىء إلى الإيمان، كإحياء الموتى، وإبراءِ الأكمه والأبرص، ولكنَّ الله أبى في شريعة محمد ﷺ مجاراة المشركين الذين كانوا يقترحون مثل هذه الآيات: ﴿ وقالوا: لن نُؤْمِنَ لَكَ حتَّى تَفْجُرَ لنا مِنَ الأرض يَنْبُوعاً

---

(٢٤) يوسف: ١٠٨.

أو تكونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نَّخيلٍ وعِنَبٍ فتفجِّرَ الأنهارَ خِلاَلَهَا تفجيراً أو تُسْقِطَ السَّماءَ كما زعمت علينا كِسَفا أو تأتيَ باللهِ والملائِكةِ قبيلاً. أو يكونَ لَكَ بيتٌ من زُخْرُفٍ أو تَرْقَى في السَّماءِ ولن نَؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينا كتاباً نقرؤُهُ قل: سُبْحَانَ ربِّي هَلْ كُنْتُ إلاَّ بَشَراً رسولاً ﴾[٢٥].

وبيّن أن آيته الوحيدة من جنس دعوته الواضحة: برهانية عقلية، تمتلىء بها البصيرة، قبل أن يتناولها البصر، وتأخُذُ بالقلب، قبل أن يأخذها الحسّ ﴿ وقالوا لولا أُنْزِلَ عليه آياتٌ من ربِّهِ، قل إنَّما الآياتُ عِنْدَ اللهِ وإنما أنا نذيرٌ مبين. أَوَ لَمْ يكْفِهِم أنَّا أنزلنا عليكَ الكتابَ يُتْلى عليهم، إنَّ في ذلكَ لرحمةً وذكرى لقومٍ يؤمنون. قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً يعلمُ ما في السَّمٰواتِ والأرض، والذين

---

(٢٥) الإسراء ـ ٩٠ ـ ٩٣.

آمنوا بالباطِلِ وكفروا باللهِ أُولئك هُمُ الخاسرون ﴾[٢٦]، ﴿ إن نَشَأْ نُنَزِّلْ عليهم مِنَ السَّماءِ آيةً فظلَّت أعناقُهمُ لها خاضعين ﴾[٢٧].

بمثل هذه الآيات ـ وهو كثيرٌ في القرآن ـ يبيِّن الله كفاية القرآن في الإيمان بدعوة محمد ﷺ، وأنَّه لا يـريد أن يلجئهم لما تخضع له أعناقهم، كما يبيِّن من جهة أُخرى أنَّ مهمـة الـرسـول معهم لا تتجـاوز التبليـغ والإنـذار والتبشير، وقد قرَّر الله مهمته بها في مكِّيٍّ القرآن يوم كان المسلمـون قِلَّة لا حولَ لهـم ولا قـوَّة، وفي مدنيِّـه يوم صـارت إليهم القوَّة وأصبحـوا أُولي بأسٍ شـديد. فمن المكِّيِّ قوله: ﴿ إنْ هُوَ إلاَّ ذكرٌ للعالمين. لمن شاءَ مِنْكم

---

(٢٦) العنكبوت: ٥٠ ـ ٥٢.
(٢٧) الشعراء ـ ٤.

أن يستقيم ﴾[٢٨]، وقوله: ﴿ فذكِّرْ إنّما أنتَ مذكِّرٌ لَسْتَ عليهم بمسيطر، إلا من تولّى وكَفَرَ فيعذِّبُهُ الله العذابَ الأكْبَرَ. إنَّ إلينا إيابهم، ثم إنَّ علينا حِسَابَهُم ﴾[٢٩]. ومن المدنيِّ قوله: ﴿ قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، فإن تولوا فإنَّما عليه ما حُمِّلَ وعليكم ما حُمِّلْتُم، وإن تُطِيعُوهُ تهتدوا، وما على الرسولِ إلا البلاغُ المبين ﴾[٣٠].

وقد تضافرت آياتٌ كثيرة على تقرير هذا المعنى وتوكيده، في بيان مهمة الرسول وشأنه في الدعوة إلى دين الله. وما أبعد هذا المعنى عن رائحة الإكراه، وما أشدّ منافرته لاتِّخاذِ الإكراه وسيلة من وسائل الدعوة.

أكثر من هذا كله أن القرآن يقرِّر بوضوح وجلاء، أن

---

(٢٨) التكوير ٢٧ ـ ٢٨.
(٢٩) الغاشية ١١ ـ ١٦.
(٣٠) النـور ـ ٥٤.

الإيمان الذي يجيء عن طريق الإكراه لا قيمة له، ولا كرامة لصاحبه، فهو يقول لفرعون حين أدركه الغرق وقال: ﴿ آمنتُ أنَّه لا إله إلاَّ الذي آمنتْ به بنُو إسرائيل ﴾ ، ﴿ الآن وقد عصيتَ قبلُ وكُنْتَ مِنَ المفسدين ﴾[٣١] ، ﴿فلما رأوْا بأسَنَا قالوا آمنَّا بالله وَحْدَهُ وكفرْنا بما كُنَّا بهِ مُشركينَ. فلم يَكُ ينفعُهُم إيمانُهُم لما رأوْا بأسَنَا، سُنَّةَ اللهِ التي قد خلتْ في عبادِهِ وَخَسِرَ هنالِكَ الكافرون ﴾[٣٢].

وكذلك يقرِّر القرآنُ أنَّه لا يقبل التوبة التي تنبعث عن الإكراه ومعاينة العذاب: ﴿ وليستِ التوبةُ للذينَ يعملُونَ السيئاتِ حتى إذا حَضَرَ أحَدَهُمُ الموتُ قال: إني تُبْتُ الآن ﴾[٣٣].

---

(٣١) يونس ـ ٩١.
(٣٢) غافر ٨٤ ـ ٨٥.
(٣٣) النساء : ١٨.

وإذا كان القرآن يقرِّر كما ترى إهدار الإيمان والتوبة اللذينِ يدفع إليهما الإكراه، ولا يكون القلب في سعته مطمئناً إليهما، فكيفَ يُعْقَلُ أن يطلب أو يشرِّع الإكراه في الدِّين أو على الدين من أي لون كان ؟! ﴿ لا إكراهَ في الدِّينِ قد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغيِّ، فمن يكفُرْ بالطَّاغُوتِ ويؤمنْ باللهِ، فقد استَمْسَكَ بالعُروَةِ الوُثقى لا انفصامَ لها، واللهُ سميعٌ عليم ﴾ [٣٤].

* * *

تبين مما تقدم أنَّه لا يوجد سببٌ ما، يبرِّر لأحدٍ ما، أن يعتقد أو يزعم أنَّ من أساليبِ الدعوة الإسلامية حمل الناس على الإيمان بها عن طريق السيف والقتال، ويتلخص هذا الفصل في النتائج الآتية:

---

(٣٤) البقرة ـ ٢٥٦.

أولًا : ليس في طبيعة الدعوة الإسلامية من التعقيد والغموض، والمشقَّة العقلية، ما تحتاج معه إلى إكـراه جليٍّ أو خفّي[٣٥].

ثانياً : أنَّ الشريعة الإسلامية، أخْذاً من كتابِ اللهِ، لا تغاير أو تخالف سنَّة الله الكونية التي جعلها أساساً لإيمان من يؤمن وكُفرِ من يَكْفُر، وهي ترك الناس وما يختارون لأنفسهم عن طريق النظر والاقتناع.

ثالثاً: أنَّ الشريعة الإسلامية، أخْذَاً من كتابِ الله أيضاً، لا تبيحُ نصوصها المحكمة الواضحة اتِّخاذ الإكراه وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله، شأنها في ذلك شأن الشرائع السابقة.

رابعاً : أنَّ صاحب الدعوة الإسلامية ليس مسؤولًا

---

(٣٥) يــراد بالإكراه الجلي ما كان بالقوة المادية كالحديد والنار وبالخفي الخوارق الحسِّية التي تخضع لها الأعناق.

أمام ربِّه إلّا عن مهمة الرسالة التي بيَّنها القرآن في مدنيِّه ومكِّيِّه، وهي التبليغُ والإنذارُ، وليسَ مطالباً بإيمان الناس حتى يَسْمَحْ له بإكراههم والعنف عليهم [٣٦].

خامساً: أنَّ كتابَ الله مصدر الدعوة الإسلامية، لا يحترم إيمانَ المكره، ولا يرتِّب عليه آثاره يوم البعث والجزاء، فكيف يأمر بالإكراه أو يبيح اتَّخاذه وسيلة من وسائل الإيمان بهذه الدعوة.

هذه النتائج يعلمها الناس من القرآن نفسه. والإيمانُ بها جزءٌ من الإيمان بالقرآن. ولهم بعد ذلك أن يسألوا. إذا كان الشأن كما تعطي هذه النتائج التي ينطق بها القرآن. فما شأن آيات القتال التي وردت في القرآن؟

وهذا هو البحث الثاني:

---

(٣٦) وهذا غير مسؤوليته ومسؤولية خلفائه عن تنفيذ شرعه في أُمَّتِهِ.

آيات القتال

نعرض في هذا الفصل آيات القتال التي وردت في القرآن لنفهم معناها الذي تدلّ عليه، وغرضها الذي سيقت له ولنعرف نسبة بعضها إلى بعض، ثم نخلص بعد إلى نتيجتها التي يتبين بها شأن هذه الآيات الآمرة بالقتال مع النتائج التي وصلنا إليها في الفصل السابق.

* * *

عرض القرآن لنوعين من أنواع القتال: أحدهما **قتال المسلمين للمسلمين**، والثاني **قتال المسلمين لغير المسلمين**.

أما الأول:: فهو شأن من الشؤون الداخلية للأمة، ونظامٌ من نظمها التي تعنيها وحدها ولا تعني أحداً سواها، فَرَضَ القرآن حالة بغي وخروج على النظام العام تقع بين طوائف الرعية بعضها مع بعض، أو بين الرعية وراعيها فوضع لها تشريعاً من شأنه أن يحفظ على الأمة وحدتها وعلى الهيئة الحاكمة سلطانها وهيبتها، ويقي المجموع شرّ البغيْ والتعادي. وهذا هو قوله في سورة الحجرات: ﴿وإن طائفتان مِنَ المؤمنينَ اقتتلُوا فأصْلِحُوا بينهُمَا، فإن بَغَتْ إحداهُمَا على الأُخْرى فقاتِلُوا التي تبغي حتَّى تفِيءَ إلى أمْرِ اللهِ، فإن فاءَتْ فأصْلِحُوا بينهما بالعدلِ وأقْسِطُوا إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المقسطين إنَّما المؤمنونَ إخوةٌ فأصْلِحُوا بَيْنَ أخَوَيْكُم، واتَّقُوا اللهَ لعلَّكُمْ تُرحَمُونَ﴾[1].

---

(١) الحجرات ٩ ـــ ١٠.

فهذه الآية تفرض حالة اختلاف يقع بين طائفتين من المؤمنين ولا يستطاع حله بالوسائل السلمية. فتلجأ كل منها إلى القوَّة وتحكيم السيف. ثم توجب الآية لهذا على الأمة ممثلَّة في حكومتها أن تنظر فيما بين الطائفتين من أسباب الشقاق. وتحاول الاصلاح بينهما، فإن وصلت إلى ذلك عن طريق المفاوضات. وأخذ كل ذي حقٍّ حقه، وردّ البغي واستقر الأمن. فقد كفى الله المؤمنين القتال. وإن بَغَتْ إحداهما على الأخرى. واستمرَّت على العدوان وأبتْ أن تفىءَ إلى أمرِ الله .وتنزل على حكم المؤمنين كانت بذلك باغية خارجة على سلطة القانون متمرِّدة على النظام. فيجبُ على جماعةِ المسلمين قتالها حتى تخضع وترجع إلى الحقّ.وتشير الآية بعد هذا إلى سِرِّ النجاح في حلٍّ ما ينشأ بين الطوائف من خلاف وهو أنه لا ينبغي أن يتَّخذ من رجوع إحدى الطائفتين إلى الحقِّ سبب للحيف

عليها. وانتقاصها حقّها ولكن يجب أن يحكم العدل. وأن تأْخذ كل طائفة حقها. كاملاً غير منقوص. تـأمَّل قـوله تعالى في تذييل الآية: ﴿إنَّ الله يحبُّ المقسطين﴾.

وكما ترشد الآية إلى هذا. ترشد إلى أن القصد من التشريع إنما هو المحافظة على وحدة الأمَّة وعدم تفرُّقها، والاحتفـاظ بأخـوَّتها الـدينية التي هي شـأنٌ من شؤون الإيمـان فتقول: ﴿إنَّمـا المؤمنونَ إخـوةٌ فـأصلحـوا بَيْنَ أخَوَيْكُم. واتقُوا الله لعلكم تُرحمون﴾.

وهذا هو التشـريع الحكيم؛ الـذي نَطَقَ بـه القرآن الكريم، على لسان النبي الأميِّ طريقاً للسلم وقضاءً على البغي والعدوان نَطَقَ به منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، قبل أن يعـرف العقل البشـري مـا سمـاه «عصبـة الأمـم» أو «مجلس الأمن» واتخـذه ـ كما يقـولون ـ سبيـلاً لحفظ

السلام واستقرار الحرِّيات وتمتُّع الدول بحقوقها.

هذا هو التشريع الحكيم، الذي لو فهمته الأمم حقَّ فهمه ومنحته العناية التي تجدر به، وسارت على منواله، لما ضلَّت سبيل الحكمة! ولسلمت من هذه الويلات المتكررة، التي يثيرها البغي والعدوان من جانب، والتخاذل وعدم التضامن من جانب آخر.

هذا هو شأن القتال الذي شرعه القرآن بين المسلمين والمسلمين وواضحٌ أنَّه لا صِلَةَ له بأُصولِ الدعوة الإسلامية والإيمان بها.

أما النوع الثاني: وهو قتال المسلمين لغير المسلمين فقد عَرَضَ له القرآنُ في كثير من آياته وسوره، وتناوله من جميع جوانبه: عَرَضَ للأسباب الباعثة عليه، وللغاية التي ينتهي عندها، وعَرَضَ لما يجبُ على المسلمين من

الاستعداد له والاحتياط لطوارئه ومفاجآته. وعرض لكثير من قواعده وأحكامه، ولما يتّصل به من هدنة أو معاهدات، ونحن نذكر فيما يأتي الآيات التي عرضت لسبب القتال والآيات التي عرضت لغايته التي ينتهي عندها، ثم نعرض لعلاقة آيات العفو بآيات القتال.

* * *

أقام المسلمون في مكة أعواماً يُسَامُونَ سوء العذاب، ويصادَرُونَ في حرِّيتهم الدينية، ويُضطَهدون في عقيدتهم التي اطمأنوا إليها ويُفتنونَ في أموالهم وأنفسهم، حتى أُكْرِهوا على الهجرة، فخرجوا من ديارهم وأوطانهم، ثم أقاموا في المدينة صابرين لأمر الله راضين بحكمه، وكانوا كلما هَمَّت نفوسهم بالردِّ على الظلم، أو تطلَّعت إلى الانتقام من الظالمين، رَدَّهم رسول الله ﷺ إلى الصبر، وانتظار أمْرِ اللهِ قائلاً: «لم أومر بقتال لم أومر بقتال» ظلوا

كـذلك حتى كـاد اليـأس يسـاورهم، ويفضي بهم إلى الظنون. عند ذلك أنزل الله أوَّل آية في القتال:

﴿أُذِنَ للذين يُقـاتَلُونَ بأنَّهم ظُلِمُـوا، وإنَّ الله على نَصْرِهِم لقدير. الذينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهم بغير حقٍّ إلَّا أن يقولوا ربُّنـا اللهُ، ولولا دَفْـعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم ببعضٍ لهدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وصلواتٌ[٢] ومساجِدُ يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً، وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ من يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لقويٌّ عَزيزٌ: الذينَ إن مكَّنَّاهُم في الأرضِ أقامُوا الصَّلاَةَ. وآتَوُا الزَّكاةَ. وأمَـرُوا بـالمعـروفِ ونَهَـوْا عَنِ المنكـر. وللهِ عـاقبـةُ الأمورِ﴾[٣].

---

(٢) الصوامع: معابد الرهبان. البيع: كنائس النصـارى. واحدهـا بيعة بكسر الباء. الصلوات: كنائس اليهود.

(٣) الحج ٤٠ ــ ٤١.

تناولت هذه الآيات الكريمة الإذن بالقتال. وعلَّلت هذا الإذن بما مني به المسلمونَ من الظلم وما أُكرهوا عليه من الهجرة. والخروج من الديار والأوطان بغير حقّ.

ثم بيَّنت أنَّ هذا الإذن موافق لما تقضي به سنَّة التدافع بين الناس، حفظاً للتوازن. ودرءاً للطغيان. وتمكيناً لأرباب العقائد والعبادات من أداءِ عباداتهم. والبقاء على عقيدة التوحيد والتنزيه. ثم أرشدت إلى أنَّ اللهَ إنما ينصُرُ بمقتضى سنَّته من ينصُرُهُ ويتَّقيه فلا يتَّخِذ الحرب أداة للتخريب والإفساد، وإذلال الضعفاء، وإرضاء الشهوات والمطامع، وأنه لا يَنْصُرُ إلَّا من إذا تمكَّن في الأرضِ عَمَرَهَا. وأطاعَ أمْرَ اللهِ فيها. وكان داعيَ خَيرٍ ومعروفٍ لا دَاعيَ منكرٍ وفساد ﴿والله يَعْلَمُ المفسِدَ مِنَ المصْلِحِ﴾[٣ب] ﴿وللهِ عاقبةُ الأُمور﴾.

---

(٣) ب: البقرة: ٢٢٠.

هذه الآية هي الآية الأولى - كما قلنا - من آيات القتال، وهي آية واضحة ليس فيها شائبة من شوائب الإكراه في العقيدة. وإنما هي على العكس تقرِّر أن التدافع بين الناس سُنَّة من سنن الله الكونية لا بدّ منها في حفظ النظام، وبقاء الصلاح والعمران. لولاها لفسدت الأرض، وهُدِمتْ أماكن العبادة على اختلافها، وتباين ألوانها. وإنما يكون ذلك بتحكُّم الأقوياء الطغاة في الأديان يعبثون بها ولا رادع. ويُكْرِهون عليها ولا مدافع. والآية لا تنظر في ذلك إلى المسلمين خاصة. بل تقول في جلاء ووضوح: ﴿لهدِّمت صوامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ ومساجد﴾ على هذا الوجه من العموم.

نقرأ بعد هذا آيات القتال التي وردت في سورة البقرة ﴿وقاتِلُوا في سبيلِ اللهِ الذينَ يُقاتِلُونَكُم ولا تَعْتَدُوا.

إنَّ اللهَ لا يحبُّ المعتدينَ. واقتُلُوهُم حيثُ ثقفتموهم[٤]. وأخْرِجُوهُم من حيثُ أخْرَجُوكُم. والفتنةُ أشدُّ مِنَ القَتْلِ ولا تقاتِلُوهُم عند المسجِدِ الحرامِ حتى يقاتلوكم فيه، فإن قاتلوكم فاقتلوهم. كذلك جزاءُ الكافرين. فإنِ انتَهَوْا فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ. وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدِّينُ لِله. فإنِ انْتَهَوْا فلا عُدوانَ إلَّا على الظالمين. الشَّهرُ الحرامُ بالشَّهْرِ الحرامِ والحُرُماتُ قِصاصٌ. فَمَنِ اعتدى عليكم فاعتدُوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم. واتَّقُوا اللهَ واعلموا أنَّ اللهَ مَعَ المتَّقِينَ﴾[٥].

تأْمُر هذه الآيات أن يقاتِلَ المسلمونَ في سبيلِ الله الذين يقاتلونهم وتأمرهم بتتبُّعِهم حيثُ وُجِدُوا، وتشتيتهم

---

(٤) ثَقِفْتُمُوهم: وجدتموهم.
(٥) سورة البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٤.

كما شتَّتوهُم من قبل. وتنهاهم عن الاعتداء وتؤكِّدُ هذا النهي بكراهة الله للعدوان، وعدم محبَّتِهِ للمعتدين. ثم ترشد إلى أن إخراج النَّاسِ من ديارهم، وترويعهم في أمنهم، والحيلولــة بينهم وبين الاطمئنــان على الأنفس والأموال، فتنة أشدّ من فتنة القتل وإزهاق الأرواح، فليقاتَل العاملون عليها والمثيرون لها كما يُقَاتَـل المقاتِلون. ثم تمنع الآيات المسلمين عن القتال في الأماكن المقدَّسة، والأزمنة المقدَّسة حتى يُقاتَلوا فيها، فإن انتهكت حرمتهم فيها، واستبيحَ قتالهم، ساغَ لهم أن يردُّوا العدوان مِثْلاً بمِثْل، وجزاءً بجزاء. ثم تخلص الآية بعد هذا وذاك إلى بيان الغاية التي تضع الحرب عندها أوزارها، وهي ألاَّ تكون فتنة في الدِّين وأن يكونَ الدِّينُ لله ليحصل الناس على حريتهم الدينية من غير اضـطهاد فيهـا ولا تعذيب عليها، فإذا ما تحقَّق هذا الغرض، واطمأنت إليه النفوس،

وَجَبَ وقفُ القتال.

هذه الآيات بما تضمنته من المبادىء التي بيَّنا في سبب القتال وغايته ليس فيها ما يقترب من فكرة الإكراه على قبول الدعوة، بل هي وسابقتها ناطقة بأجلى بيان، وأوضح عبارة، **بأنَّ السبب الذي من أجله أُمِرَ المسلمون بالقتال، هـو الاعتداء عليهم؛** وإخـراجهم من ديارهم، **وانتهاك ما عظِّم من حرمات الله، ومحاولة فتنة الناس فيما يدينون.** وكذلك هي ناطقة بأنَّ الغاية التي يجب على المسلمين أن يكفُّوا عندها عن القتال، هي انتهاء العدوان عليهم، وتقرير الحرية الدينية خالصة لله، غير متأثِّرةٍ بضغطٍ ولا إكراه.

هذه المبادىء التي أرشدت إليها تلك الآيات، نراها بعينها أو قريباً منها، في كثير من آيات القتـال الأخرى الواردة في سُوَر النساء والأنفال، والتوبة: ففي سورة النساء

﴿وما لكم لا تقاتِلُونَ في سبيل اللهِ والمستضعفينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّساءِ والوِلْدَانِ الذين يقولون: ربَّنا أخْرِجْنَا مِن هذِهِ القريةِ الظالِمِ أهلُها، واجعلْ لنا من لدنكَ وليّاً واجعلْ لنا من لَدنك نصيراً﴾(٦).

﴿فقاتلْ في سبيلِ اللهِ لا تكلَّفُ إلَّا نَفْسَكَ، وَحَرِّضِ المؤمنينَ عسى اللهُ أن يَكُفَّ بأْسَ الذينَ كَفَرُوا، واللهُ أشدُّ بأساً، وأشدُّ تنكيلاً﴾(٧).

﴿فإنِ اعْتَزَلُوكُم فلم يقاتِلُوكُم وألْقَوْا إليكُمُ السَّلَمَ فما جَعَلَ اللهُ لكم عليهم سبيلاً﴾(٨).

﴿فإن لم يعتزلوكم ويُلْقُوا إليكُمُ السَّلَمَ ويَكُفُّوا أيدِيَهُم، فَخُذُوهُم واقتلوهم حيث ثَقِفْتُمُوهُم وأولئِكُمْ جعلنا

---

(٦) النساء ٧٤.
(٧) النساء ٨٤.
(٨) النساء ٩٠.

لكم عليهم سلطاناً مبيناً ﴾[9].

اقْرَأْ هذه الآيات، وقِفْ عند قوله: ﴿عسى الله أن يَكُفَّ بأسَ الذين كفروا ﴾ وقوله: ﴿فإن لم يعتزلوكم ﴾ لتعلم روح الفتنة الذي كـان يحمله القوم للمسلمين، والـذي لأجله أُمِرَ المسلمونَ بقتالهم، وهذا هو عين ما قرَّرته سورة البقرة فيما سبق: وهو عين ما تقرِّرُهُ سورة الأنفال والتوبة أيضاً، ففي سورة الأنفال قوله تعالى: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكونَ فتنةٌ، ويكونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله، فإن انتَهَوْا فإنَّ اللَّهَ بما يعملونَ بصير ﴾[10]. وهي على غرار ما جاء في سورة البقرة، وفي سورة التوبة كقوله تعالى: ﴿وإن نكثوا أيْمَانَهُم مِن بعدِ عَهْدِهِم وطَعَنُوا في دِينِكُم فقاتلوا أئمة الكفْرِ إنهم لا أيْمَانَ لهم لعلهم ينتهون. ألا تُقَاتِلُونَ قوماً نكثوا أيمانهم

---

(٩) النساء ٩١.

(١٠) الأنفال: ٣٩

وهَمُّوا بإخراجِ الرسولِ وهم بدءُوكم أوَّلَ مرَّةٍ أتخشونهم ؟ فاللهُ أحقُّ أن تَخْشَوْهُ إن كنتم مؤمنين ﴾[11].

وقوله: ﴿وقاتلوا المشركينَ كافَّةً كما يقاتلونكم كافَّةً، واعلموا أنَّ اللهَ مَعَ المتَّقِين ﴾[12].

اقْرَأْ هذه الآيات، وتأمَّل أولاً قوله: ﴿وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم ﴾ وتأمَّل ثانياً قوله: ﴿وهم بدءوكم أوَّل مرَّة ﴾ وثالثاً: قوله : ﴿كما يقاتلونكم كافَّة ﴾ تأمَّل كلَّ ذلك لتعلم أنَّ هذه الآيات نزلت في شأن قوم مردوا على الفتنة، وتأصَّلت فيهم عوامل الإفساد حتى لم يصبح للعهود في نظرهم قيمة، ولا للفضيلة عندهم ميزان، وليس من شك في أن قتال

---

(١١) التوبة: ١٢ - ١٣.

(١٢) التوبة: ٣٦.

هؤلاء، وتطهير الأرض منهم، والقضاء على فتنتهم إنَّما هو من قبيل الخير العام، يُسدى إلى الإنسانية جمعاء.

* * *

وقد جاء في سورة التوبة بعد هذه الآيات آيتان ربما أوهم ظاهرهما خلاف ما تقرِّر هذه الآيات في سبب القتال، نسوقهما هنا ونبيِّن ما يدلَّان عليه في ضوء الآيات المتقدِّمة التي تعتبر - لكثرتها ووضوحها - أصلاً في مشروعية القتال وسببه يجب أن يتحاكم إليه ويخرَّج ما سواه عليه.

أولاً: قوله تعالى ﴿قاتلوا الذينَ لا يُؤْمِنُونَ باللهِ ولا باليومِ الآخِرِ ولا يحرِّمُونَ ما حرَّمَ اللهُ ورسولُهُ ولا يدينونَ دينَ الحقِّ مِنَ الذين أُوتُوا الكتابَ حتى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عن

يَدٍ وهم صاغرونَ﴾[١٣].

ثانياً: قوله تعالى ﴿يا أيُّها الذين آمنوا قاتِلُوا الذينَ يَلُونَكُم من الكفَّارِ وَلْيَجِدُوا فيكم غِلْظَةً، واعلموا أنَّ اللهَ مَعَ المتَّقين﴾[١٤].

فالآية الأولى تأمر المسلمين باستمرار مقاتلة طائفة هذه صفتها (لا يؤمنون بالله، : الخ) قد ارتكبت من قَبْلُ مَعَ المسلمين ما كان سبباً للقتال من نقضِ عهدٍ وانقضاضٍ على الدعوة ووضعٍ للعراقيل في سبيلها، فهي لا تجعل عدم الإيمان وما بعده سبباً للقتال، ولكنها تذكر هذه الصفات التي صارت إليهم، تبييناً للواقع، وإغراءً بهم مع تحقُّق العدوان منهم؛ غيَّروا دينَ الله واتَّخذوا

---

(١٣) التوبة: ٢٩.
(١٤) التوبة: ١٢٣.

أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دونه يحلِّلون لهم بالهوى ويحرِّمون، غير مؤمنين بتحليل الله ولا تحريمه، وليس عندهم ما يردعهم عن نقضِ عهدٍ، ولا مصادرة حقٍّ، ولا رجوعَ عن عدوانٍ وبَغْيٍ.

هؤلاء هم الذين تأمُرُ الآيةُ باستمرار قتالهم حتى تأمن شرَّهم وتثق بخضوعهم، وانخلاعهم من الفتنة التي يتقلَّبون فيها، وجعل القرآن على هذا **الخضوع علامة هي دفعهم الجزية التي هي اشتراك فعليّ في حمل أعباءِ الدولة، وتهيئة الوسائل إلى المصالح العامة للمسلمين وغير المسلمين**[١٥].

---

(١٥) فليست الجزية كما يتصورها بعض الناس بدلاً عن إسلامهم أو دمائهم وإنما هي كما قلنا علامة لخضوعهم وكفِّهم عَنِ القتال ومصادرة الدعوة، واشتراك في مصالح الدولة نظير حماية أنفسهم وأموالهم؛ وقد ذكر أبو يوسف في كتاب الخراج من ص ٣٥ «أن أبا عبيدة بعدما صالح أهل الشام وجبى منهم الجزية والخراج بلغه أن

وفي الآية ما يدلُّ على سبب القتال الذي أشرنا إليه وهو قوله تعالى ﴿وهم صاغرون﴾، وقوله: ﴿عن يَدٍ﴾ فإنهما يقرران الحال التي يصيرون إليها عند أخذ الجزية منهم، وهي خضوعهم، وكونهم بحيث يشملهم سلطان المسلمين؛ وتنالهم أحكامهم، ولا ريب أنَّ هذا يُؤذن بسابقية تمرُّدِهِم وتحقّق ما يدفع المسلمين إلى قتالهم.

هذا هو المعنى الذي يُفهم من الآية، ويساعد عليه سياقها، وتتفّق به مع غيرها، ولو كان القصد منها أنَّهُم يُقَاتَلُون لكفرهم وأنَّ الكفر سببٌ لقتالهم لجعلت غاية

= الروم قد جمعوا له، واشتد الأمر عليه وعلى المسلمين فكتب رضي الله عنه إلى امراءِ المدن التي تمَّ صلحها أن يردُّوا عليهم ما جبي منهم من الجزية والخراج وأن يقولوا لهم: إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جُمِعَ لنا من الجموع وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم وإنَّا لا نقدر على ذلك، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم».

القتـال إسلامهم ولمـا قبلت منهم الجزيـة وأُقِـرُّوا على دينهم.

أما الآية الثانية: ﴿قاتلوا الذين يلونكم...﴾ فليست واردة مورد الآيات السابقة في بيان سبب القتال وما يحمل عليه، وإنما جاءت إرشاداً لخطَّةٍ حربية عملية تترسَّم عند نشوب القتال المشروع فعلاً، فهي ترشد المسلمين إلى وجوب البدء عند تعدُّد الأعداء بقتال الأقرب فالأقرب عملاً على إخلاء الطريق من الأعداء المناوئين، وتسهيلاً لسبل الانتصار[١٦].

---

(١٦) قد وقف بعض من يقصد الكيد للإسلام عند ظاهر هذه الآية: قاتلوا الذين يلونكم من الكفَّار» وزعم أن الدين الإسلامي يـأمر بقتـال الكفّار عامة، حصل اعتداء منهم أم لم يحصل حتى يؤمنوا ويدينوا بالإسلام - قالوا: وقد استقر الحكم في الشريعة على هذا. والواقع أن المراد من كلمة الكفَّار في الآية ونظائرها، المشركون المحاربون الذين قاتلوا المسلمين واعتدوا عليهم، وأخـرجوهم من ديـارهم =

وهذا المبدأ الـذي قرَّره القـرآن من المبادىء التي تعمل بها الدول المتحاربة في هذا العصر الحديث، فلا تخطو دولة مهاجمة خطوة إلا بعد إخلاءِ الطريق أمامها، والاطمئنان إلى زوال العقبات من سبيلها.

وبهذا يتبين أنَّه لا صلة للآيتين بسبب القتال الذي تضافرت الآيات الأُخرى على بيانه.

* * *

= وأموالهم، ووقفوا فتنة للناس في دينهم وهم الـذين تحدثت عن أخلاقهم أوائل سورة التوبة.

وكذلك المراد من كلمة «النَّاس» الواردة بحديث «أُمِرتُ أن أقاتِلَ الناس»، فإن الـذي يتوقف انتهـاء قتالـه على ما ذكـر في الحديث بالإجماع هم مشركو العرب خاصة. أما غيرهم فيكفي في انتهاء قتاله أن يُعْطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

وبهـذا تتفق الآيات بعضهـا مع بعض، ويُجمـع بينهـا وبين الأحاديث ويسقط مثل ذلك الزعم الباطل.

اتَّضح مما تقدم:

(١) أنه لا توجد آية واحدة في القرآن الكريم تدلُّ أو تشيرُ إلى أن القتال في الإسلام، لِحمْلِ الناسِ على اعتناقه.

(٢) وأنَّ سبب القتال ـ كما تدلُّ عليه الآيات السابقة ـ ينحصر في ردِّ العدوان وحماية الدعوة وحرِّية الدِّين.

(٣) وأنَّ القرآن حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء، وابتغاه طريقاً إلى السلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والمساواة.

(٤) وأنَّ الجِزية لم تكن عوضاً مالياً عن دمٍ أو عقيدة، وإنما هي علامة على الخضوع وكفِّ الأذى

ومشاركة في حمل أعباء الدولة.

وليس لأحد بعد هذا أن يفتريَ على الإسلام، أو يسيءَ فهم آيات القرآن، فيزعم ما يزعمه الجاهلون من أن الإسلام قرَّر القتال طريقاً لدعوته، ووسيلةً للإيمان به، وأنه إنما قامت دعوته وانتشرت عقيدته على أساس من الضغط والإكراه.

ونحن نسوق هنا آية في سورة الممتحنة هي بمثابة دستور إسلامي في معاملة المسلمين لغير المسلمين:

قال الله تعالى: ﴿لا ينهاكُمُ اللهُ عَنِ الذينَ لَمْ يقاتلوكم في الدِّين ولم يُخْرِجُوكم من دياركم أن تَبَرُّوهُم وتُقْسِطُوا إليهمْ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المقسِطِينَ. إنما ينهاكُمُ اللهُ عَنِ الذينَ قَاتَلوكُم في الدِّين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجِكم أن تَوَلَّوهُمْ، ومن يتوَلَّهمْ فأُولئِكَ

هُمُ الظالمونَ﴾[17].

إقرأ هذا الدستور ثم ارجع إلى سورة المائدة وهي من أواخر القرآن نزولاً، واقرأ منها فيما يتّصل بعلاقة المسلمين بغيرهم قوله تعالى:

﴿اليومَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَيِّبَاتُ، وطَعَامُ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لكم، وطعامُكُمْ حِلٌّ لهم والمحصناتُ مِنَ المؤمناتِ والمحصناتُ مِنَ الذين أُوتُوا الكِتابَ مِن قبلِكُم إذا آتيتُمُوهُنَّ أُجورهُنَّ محصنينَ غيرَ مسافحينَ. ولا متَّخذِي أَخْدانٍ ومن يكفُرْ بالإيمانِ فقد حبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الخاسرينِ﴾[18].

اقْرَأْ هذا وذاك لتعلم روح السُّمُوّ التي يحملها الإسلام

---

(17) الممتحنة: ٨ ـ ٩.

(18) المائدة : ٥.

في علاقته بغير معتنقيه: بِرّ، وقِسْطٌ، وتعاون، ومصاهرة. وهي علاقة يتضاءل أمام روعتها أحدث مبدأ عرفه العقل البشري في العلاقات الدولية العامة.

* * *

علاقة آيات العفو بآيات القتال

ويجدر بنا ألَّا نترك هذا المقام حتى نعرض لمسألة شغلت أذهان كثير من الناس الذين ينظرون في القرآن، ويقارنون بعض آياته ببعض.

وأمامنا من هؤلاء طائفتان.

طائفة خصوم الدِّين الذين يتلمَّسُون في القرآن الكريم مطعناً.

وطائفة من المفسِّرين تحملهم غيرتهم الدينية على التوفيق بين ما يظن فيه تناقضاً مع غيره من آيات القرآن، فيجنحون إلى القول بنسخ بعض الآيات لبعض، وقد

أسرف بعض هؤلاء فيما اندفعوا إليه بما يخيَّل أنهم مهَّدوا به طريق الطعن لخصوم الدين والقرآن من حيث لا يريدون.

فأمَّا الخصوم فقد نظروا فيما بين آيات القتال بعضها مع بعض وفيما بينها جملة، وبين آيات العفو والصفح فقالوا: بينما ترى بعض آيات القتال يأذن في القتال ويُبيحه إذا البعض الآخر يحتِّمه بشدَّة ويطلبه بتحريض، وبينما ترى بعض هذه الآيات يطلب قتال المعتدي ويمنع البدء بالعدوان، ترى البعض الآخر يأمر بقتال الجميع من غير رحمة ولا هوادة ولا تفريق بين معتدٍ وغيره وبينما ترى جملة هذه الآيات تطلب القتال وتقرِّره، ترى آيات أُخرى كثيرة منبثَّة في جميع سور القرآن تأمر بالعفو والصفح ومقابلة السيئة بالحسنة، والدعوة إلى الله بالحكمة.

وهذه كلها أنواع من التناقض ـ كما يزعمون ـ لا يتفق

معها أن يكون القرآن الذي جاء به محمد وحياً يُوحى إليه من عند الله؟.

وأمَّا أصدقاء القرآن وخَدَمَتِهِ فيقولون: إنَّ آيات القتال نَسَخَتْ آياتَ العفو والصفح، حتى قوله تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنةُ ولا السيئةُ ادفَعْ بالتي هي أحسنُ..﴾[1] وقوله تعالى ﴿ادْعُ إلى سبيلِ ربِّكَ بالحِكمةِ والموعظةِ الحسنة وجادِلْهُم بالتي هي أحسنُ﴾[2].

ويقولون إنَّ آية التوبة ﴿وقاتلوا المشركين كافَّة كما يقاتلونكم كافَّة﴾[3] نسخت ما تقدَّم بين يديها من آيات العفو.

---

(1) فصِّلت: ٣٤.
(2) النحل: ١٢٥.
(3) التوبة: ٣٦.

ومن عجيب أقوالهم أن آية ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾[٤] في البقرة نسخت الآية التي قبلها ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾[٥] وأنَّ آية ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة﴾[٦] في هذه السورة أيضاً نسخت التي قبلها: ﴿ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه﴾[٧].

فهذه الجملة القرآنية التي وردت في سورة البقرة مكوَّنة من أربع آيات صارت بهذا الصنيع آيتين ناسختين وآيتين منسوختين الثانية نسخت الأولى، والرابعة نسخت الثالثة!!

---

(٤) البقرة: ١٩١.
(٥) البقرة: ١٩٠
(٦) البقرة: ١٩٣.
(٧) البقرة: ١٩١.

وقد قال الإمام الرازي في تفسيره تعليقاً على هذا الرأي: «إنه يبعد من الحكيم أن يجمع بين آيات متوالية تكون كل واحدة منها ناسخةً للأخرى».

ولا يبعد أن يكون هذا الصنيع مهَّد لخصوم الدِّين أن يقولوا بتناقض القرآن، إنَّهم لا يريدون النسخ الذي يدَّعيه أصدقاء القرآن، وكيف يقبلون دعواه مِنَّا في القرآن ومن علمائنا، من لم يقبله فيه؟!

ولعلَّك تشعر بعد العرض الذي عرضنا به آيات القتال أنَّه لا تناقض ولا تعارض بين بعضها وبعض ولا محلَّ للقول بالنسخ فيها لأن النسخ لا يكون إلا عند التعارض، فهي إذاً محكمات باقيات تتلاقى جميعها عند حدٍّ واحد. تقرِّر حكماً واحداً وسبباً واحداً وغاية واحدة.

أما آيات الصفح والعفو فهي ترمي إلى تكوين الجانب

الخلقي ويجب العمل بها في دائرتها التي لا تخدش العزَّة والكرامة، ولكلٍّ مقامٍ مقال، ولكلٍّ حالٍ تشريع، فهي أيضاً محكمات باقيات.

إنَّ التشريع الذي يبنى على مراعة الأحوال وشؤون الأفراد والجماعات، ويطلب من الناس أن يسلكوا في كل حالة ما يناسبها لا يمكن أن يُرمى بأنَّه تشريع متناقض أو أن بعضه ناسخ لبعض وإنما هو في نظر العقول السليمة تشريع حكيم غاية في الدقة، ناهض بأهله، محقِّق لغايته وهي سعادة الفرد والجماعة.

آيات تنظيم القتال

كان من نتائج البحث الأول أن سبب القتال كما يدلُّ عليه القرآن ينحصر في ردِّ العدوان، وحماية الدعوة، وحرية الدين. وفي هذه الدائرة وحدها شرع الله القتال، وحثَّ عليه، ورغَّبَ فيه. وأرشد إلى كثير من قواعده وآدابه التي تضمن النصر والظفر. ونعرض في هذا الفصل الآيات التي عرضت للقتال من هذه الناحية.

وإنَّ من يتتبَّع هذه الآيات من كتابِ الله يجدها تضع للمسلمين مبادىء عامة يتكوَّن منها قانون موضوعي للقتال، له مكان القمة بين نظم العصر الحديث، والمدنية الحاضرة.

والقانون الموضوعي للقتال في أُمَّةٍ تريد لنفسها العِزَّة والكرامة، يقوم على عناصر ثلاثة:

العنصر الأول: تقوية الروح المعنوية في الأمة.

العنصر الثاني: إعداد القوة المادية.

العنصر الثالث: التنظيم العملي للحرب.

وقد تناول القرآن، وهو يرسم للناس سُبُل الحياة الطيبة، هذه العناصر الثلاثة بأساليب تنتظم كل ما تجود به القرائح في شتى العصور ومختلف الحضارات، لا تقف عند عصر، ولا تضيق بما يجدّ من نُظُم وأدوات، ثم هي مع قوَّتها واتساعها تملك على الناس أفئدتهم، وتملؤها بمعاني الرحمة والشفقة، كما تعمرها بروح الإخلاص وابتغاءِ مرضاة الله في تطهيرِ الأرض من الفساد وخلوّها من عوامل البغي والعدوان. وإنَّك لتجد هذه المعاني ماثلة في

كل عنصر من هذه العناصر الثلاثة.

* * *

فالعنصر الأول: وهو تقوية الروح المعنوية عند الأُمَّة يقول القرآن فيه: ﴿فليقاتِلْ في سبيلِ الله الذينَ يَشْرَونَ الحياةَ الدنيا بالآخرةِ، ومن يقاتِلْ في سبيلِ الله فيُقْتَلْ أو يَغْلِبْ فسوف نُؤتيهِ أجْرَاً عظيماً، وما لكم لا تُقاتِلُونَ في سبيلِ اللهِ والمستضعفينَ مِنَ الرجالِ والنِّساءِ والوِلْدَانِ الذين يقولون: ربَّنا أخْرِجْنَا من هذه القريةِ الظالِمِ أهلُهَا، واجْعَلْ لنا مِن لدنك وليَّاً واجْعَلْ لنا من لدنك نصيراً: الذين آمنوا يقاتِلُونَ في سبيلِ الله والذين كفروا يُقاتِلُونَ في سبيلِ الطاغوت، فقاتِلُوا أولياءَ الشيطانِ إنَّ كيدَ الشيطانِ كانَ ضعيفاً﴾[1].

---

(١) النساء: ٧٤ ـ ٧٦.

يحرِّك عواطفهم نحو القتال، فيذكر لهم أنَّه قتال في سبيل الله الذي يضاعف ثواب العاملين وأجر المجاهدين.

قتال في سبيل إنقاذ الضعفاء والبِرِّ بالإنسان ومقاومة الجبروت والطغيان، قتال لدحض عوامل الشَّرِّ والإفسادِ.

ويقول: ﴿أجعلتم سِقايَةَ الحاجِّ وعِمَارَةَ المسجِدِ الحرامِ كَمْن آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وجاهَدَ في سبيلِ اللهِ؟ لا يستُوونَ عِندَ اللهِ واللهُ لا يهدي القومَ الظالمينَ. الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظمُ دَرَجَةً عندَ اللهِ وأُولئك هُمُ الفائزون. يبشِّرُهُم ربُّهُم برحمةٍ منه ورضوانٍ وجنَّاتٍ لهم فيها نعيمٌ مقيمٌ. خالدين فيها أبداً، إنَّ اللهَ عنده أجْرٌ عظيم﴾(٢).

إقْرَأْ هذه الآية وكرِّرها في نفسك مرَّة بعد أُخرى ثم

---

(٢) التوبة: ١٩ ـ ٢٢.

قِفْ طويلاً عند قوله: ﴿إِنَّ الله عنده أجرٌ عظيم﴾ لتعلم أنَّ أجر المجاهدين في سبيل الله بالنَّفس والمال لا يقف عند حدّ، ولا يحيط به إلا عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

ويقول: ﴿إِنَّ اللَّه اشترى مِنَ المؤمنينَ أنْفُسَهُم وأموالَهُم بأنَّ لَهُمُ الجنةَ، يقاتلونَ في سبيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ، وعْداً عليه حقاً في التوراةِ والإنجيلِ والقرآنِ. ومن أوفى بعهده من الله؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به. وذلك هو الفوز العظيم﴾[٣].

يذكِّرهم بهذا العهد الإلهي الذي أخذه على نفسه للمجاهدين في سبيله، وبيَّنه في جميع كتبه؛ ويبرزه في صورة تعاقد بين بائعٍ ومشترٍ يقضي على كلٍّ من الطرفين

---

(٣) التوبة ـ ١١١.

الوفاء بما التزم من حقوق ذلك التعاقد، ويؤكِّد لهم أنَّ القيام بمقتضى هذا العهد والتضحية في سبيل المحافظة عليه هو الفوز الذي ليس بعده فوز.

ويقول: ﴿قُلْ إنْ كانَ آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكُم وأزواجُكُم وعشيرَتُكُم وأمْوَالٌ اقترفتُمُوها وتجارةٌ تخشونَ كسادَهَا ومساكِنُ تَرْضَوْنَهَا أحبَّ إليكم من اللهِ ورسولِهِ، وجهادٍ في سبيله فتربَّصُوا حتى يأتيَ اللهُ بأمْرِهِ، واللهُ لا يهدي القومَ الفاسقين﴾(٤).

وتستوعب هذه الآية جميع النواحي التي ينبعث من قبلها في العادة الجُبْنَ والخَوَرَ، وتطلب من المؤمنين التضحية بها جميعاً في سبيل اللهِ والحقِّ، في سبيل الخير والسعادة، فلا الآباء ولا الأبناء ولا الإخوان ولا الأزواج ولا

---

(٤) التوبة ـ ٢٤.

العشيرة، ولا الأموالَ التي بُذلت في سبيل الحصول عليها الـراحة والهنـاءة، ولا التجارة التي يُخشى بـوارها، ولا المساكنُ المحبَّبة إلى النفوس، لا شيءَ من ذلك كله يصحُّ أن يحولَ بين المؤمنين وما تقتضيه محبَّة اللهِ ورسوله من تضحية وجهاد ﴿إنما المؤمنونَ الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابــوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾[٥]. فالإيمان الصادق عقيدة في الله والرسول تسمو عن الشكوك والريب، وتقضي ببذل النفس والمال، جهاداً في سبيل الله.

بمثل هذا الأسلوب القوي، وهو كثيـر في القرآن، يحارب الله عوامل الضعف ونزعات الخوف، ويغرس في نفوس الأُمَّة خُلُقَ الشجاعة والتضحية والاستهانة بزخرف

---

(٥) الحجرات ـ ١٥.

هذه الحياة في سبيل الحق ونصرته.

* * *

وكما يعمل القرآن على غرس هذه الأخلاق في نفوس الأُمَّة عامَّة ويبني منها رجالاً أقوياء الروح والقلب، يعمل بوجه خاص على غرسها في نفوس المجاهدين أنفسهم، فهو يقول فيما يحكيه عن المجاهدين الذين تمَّ لهم النَّصْرَ والظفـر فيما مضى: ﴿كم من فِئَةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذنِ الله والله مَعَ الصابرين. ولما برزوا لجالوت وجنودِهِ قالوا: ربَّنَا أفْرِغْ علينا صَبْرَاً وثبِّتْ أقدامنا وانْصُرْنا على القومِ الكافرين. فهزموهم بإذنِ الله، وقَتَلَ داودُ جالوتَ وآتاهُ الله الملكَ والحِكْمَةَ وعلَّمَهُ مِمَّا يشاءَ﴾[٦]. ويقول مخاطباً نبيَّه ومذكِّراً له بموقفه وهو يبعث في نفوس

---

(٦) البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥١.

المجاهـدين القـوَّة والشجاعـة، ويحثُّهم على الإقـدام والثبات، ويصوِّر لهم مدد الله الذي يطمئنهم به: ﴿إذْ تَقُولُ للمؤمنينَ: ألن يَكْفِيَكُم أن يمدَّكُم ربُّكُم بثلاثةِ آلافٍ مِنَ الملائِكَةِ منزلين؟ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم[7] هذا يمـددكم ربُّكُم بخمسة آلافٍ مِنَ المـلائكةِ مسوِّمين. وما جَعَلَهُ الله إلاَّ بُشْرى لكم ولتطمئنَّ قُلُوبُكُم بِهِ، وما النصرُ إلاَّ مِن عند الله العزيز الحكيمِ﴾[8]. ويقول: ﴿ولا تَهِنُوا ولا تحزنوا وأنْتُمُ الأعْلَوْنَ إنْ كنتم مؤمنين. إن يَمْسَسْكُم قَرْحٌ فقد مسَّ القـومَ قَرْحٌ مِثْلُه، وتلكَ الأيَّـامُ نداوِلُها بين الناس، ولِيَعْلَمَ اللهُ الذينَ آمنوا ويتَّخِذَ منكم شُهَدَاءَ، واللهُ لا يحبُّ الظالمين. وليمحِّصَ اللهُ الـذينَ

---

(٧) من فورهم: يعني من ساعتهم: مسومين بالفتح. معلمين. وبالكسر: معلمين أنفسهم بعلامة. وقيل: مرسلين خيلهم في الغارة.قرح:جرح، والمعنى إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر.

(٨) آل عمران:١٢٤ ـ ١٢٦.

آمنوا ويَمْحَقَ الكافرين. أمْ حسبتم أن تدخلوا الجنَّةَ ولمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذينَ جاهدوا منكم ويَعْلَمَ الصَّابِرِين؟ ﴾[٩].

يهوِّن عليهم ما يصيبهم في سبيل الله ويرشدهم إلى أن الإيمانَ يجعل من صاحبه قوّة لا تلين؛ وعزمة لا تفلّ، وأنَّ سنَّة الله في القتال أن يداول بين الفريقين، وأنَّ العاقبة للصابرين: ﴿ولا تَهِنُوا في إبتغاءِ القومِ، إنْ تكونوا تألمونَ فإنَّهم يألمونَ كما تألمون، وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ ما لاَ يَرْجُون، وكانَ اللهُ عليماً حكيماً﴾[١٠].

هذا قليل من كثير في تقوية القرآن للروح المعنوية عند الأمة عامَّة، والمجاهدين خاصَّة.

* * *

(٩) آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٢.
(١٠) النساء: ١٠٤.

والعنصر الثاني: وهو إعداد القوَّة المادية، **يقول** القرآن فيه: ﴿وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوَّةٍ ومن رباطِ الخيلِ تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُم﴾[11]. ويقول: ﴿ودَّ الذين كفروا لو تَغْفُلُونَ عن أسلِحَتكم وأمتِعتكم فيميلون عليكم ميلةً واحدةً﴾[12].

ترشد الآية الأولى إلى أمرين لهما خطرهما في حياة الأمم. القوَّة والرِّباط. **فالقوة**، تتناول العَدَدَ والعُدَّةَ، «وهي كلمة تتَّسع لكل ما عُرِفَ ويُعْرَف من آلاتِ الحرب، وآلاتِ النقل ومواد التموين. **والرباط**: كلمةٌ تتَّسع لكلِّ ما عُرِفَ ويُعرفُ أيضا في تحصين الثغور ومداخل العدوّ، ثم بيّنت الآية بعد ذلك فائدة الإعداد للسلم والاستقرار، وهي إرهاب العدو حتى لا تحدِّثه نفسه باستغلال ناحية من

(11) الأنفال: ٦٠.
(12) النساء: ١٠٢.

نواحي الضعف والتخاذل.

أما الآية الثانية فهي ترشد إلى أخْذِ الحيطة والحذر من العدوِّ مخافة أن ينقضَّ انقضاض الصاعقة وهم عنه غافلون.

إشارة القرآن إلى ما في الحديد والمعامل من وجوه النفع:

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نسوق هذه الآية الفذَّة، ذات المغزى العظيم في لفت الأنظار، وتنبيه العقول، إلى ما في «الحديد» من قوَّة تشدُّ عَضُدَ المؤمنين في التمسُّكِ بحقِّهم، والمحافظة عليه هي قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿لقد أرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبيِّنَاتِ؛ وأنزلنا معهم الكِتَابَ والميزانَ ليقومَ النَّاسُ بالقِسْط، وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للنَّاسِ؛ وَلِيَعْلَمَ اللهُ من يَنْصُرُهُ ورُسُلَهُ

بالغيب، إنَّ الله قويٌّ عزيز(١٤).

أنظر كيف زاوَجَ بين الكتاب والميزان، وبين الحديد في أنَّه أنزل الجميع، وكيف خلع على الحديد الذي به قوام الميزان وحفظ القسط، هذين الوصفين: البأس الشديد والنفع العظيم. تأمَّل هذا ثم انظر مِمَّ تُتَّخَذْ أدواتُ القتال بريَّة وبحريَّة، وجوِّيَّة وما الحديد في كل هذه الأدوات؟ . ثم تأمَّل في قوله بعد ﴿وليعلم اللهُ من ينصرُهُ ورُسُلَهُ بالغيب﴾ لتعلم أن نَصْرَ اللهِ معقودٌ لمن سخَّر الحديد، واتَّخذ منه القوَّة والبأس.

وإذا عرف المسلمون **قيمة** فضل الله عليهم وعلى الناس «بالحديد» الذي أنزله، فليعرفوا فضل الله على نبيِّه «داود» في إلهامه طُرُقَ الانتفاع بهذه المادَّة. وقد قصَّ الله

---

(١٤) الحديد: ٢٥.

علينا ذلك في كتابه لتكونَ لنا منه العبرة والذكرى. اقرأْ قوله تعالى في سورة سبأ: ﴿ولقد آتينا داودَ مِنَّا فضلاً: يا جِبَالُ أوِّبي[١٥] مَعَهُ، والطَّيْرَ، وألنَّا لَهُ الحديدَ، أنِ اعملْ سابغاتٍ[١٦]، وقدِّرْ[١٧] في السَّرْدِ، واعملوا صالِحاً، إنِّي بما تعملُون بصير﴾[١٨].

ثم اقرأْ فضل الله على سليمان في قوله من السورة نفسها (١٢ ـ ١٣) ﴿ولسليمَانَ الرِّيحَ غُدُوَّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ، وأسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ[١٩]، ومن الجِنِّ من يعملُ بَيْنَ

---

(١٥) في الألوسي: «وقيل المعنى: ارجعي إلى مراده فيما يريد من حفر واستنباط أعين واستخراج معدن ووضع طريق» ا هـ.

(١٦) السابغات: الدروع.

(١٧) السرد: النسج، واستعير لنظم الحديد. والمعنى أحكم حلقها في الوضع والمقدار بحيث تقوى على الدفاع ولا ينال صاحبها من خللها ا هـ ألوسي.

(١٨) سبأ ـ ١٠ ـ ١١.

(١٩) القطر: النحاس الذائب والإسالة بمعنى الإلانة التي كانت لداود.

يديهِ بإذْنِ ربِّهِ؛ وَمَن يَزِغْ منهم عن أمْرِنا نُذِقْهُ من عَذَابِ السَّعير. يعمَلُونَ له ما يشاءُ مِن محاريبَ وتماثيلَ وجِفَانٍ كالجوابِ وقُدُورٍ راسياتٍ، اعملوا آل داودَ شُكْراً، وقليلٌ من عبادِيَ الشَّكُورُ﴾[20].

ويجدر بنا أن نسوق هنا كلام الرازي في تفسير قوله تعالى في سورة (ص ٣٠ ـ ٣٣): ﴿ووهبنا لداودَ سليمانَ، نِعْمَ العبدُ، إنَّه أوَّابٌ. إذْ عُرِضَ عليه بالعَشِيِّ الصافِنَاتُ الجِيادُ. فقالَ: إنِّي أحْبَبْتُ حُبَّ الخيرِ عن ذِكْرِ ربِّي حتى تـوارتْ بالحِجـابِ. رُدُّوهـا عليَّ فـطفِقَ مَسْحـاً بـالسُّـوقِ

(٢٠) ترشد الآية إلى أن مصانع سليمان كانت تخرج القصور وأدواتها من الجفان والقدور وكانت تخرج التماثيل، وقد فسرت بتفاسير كثيرة منها أنهم كانوا يعملونها كالحيوانات في أسفل الكرسي، وكانت تتحرك بآلات عند الصعود. قال الألوسي: وقد انتهت صنائع البشر إلى مثل ذلك في الغرابة.

والاعناقِ﴾ لتعلم أنَّ الرِباط شأنٌ قديم اتخذته أقدم الأمم حضارةً، وأكبرهم عدّةً وأقواهم فكرة ـ قال:

«إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم، كما أنه كذلك في دين محمد ﷺ. ثم إنّ سليمان عليه السلام احتاج إلى الغزو فجلس وأمر بإحضار الخيل وأمر بإجرائها، وذكر أني لا أُحِبُّها لأجلِ الدنيا ونصيب النفس، وإنما أُحِبُّها لأمر الله وطلب تقوية دينه وهو المراد من قوله ﴿عن ذِكْرِ ربِّي﴾. ثم إنه عليه السلام أمر باعدائها وتسييرها حتى توارتْ بالحجاب، أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يردُّوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك المسح أمور: (الأول) التشريف لها، والإبانة عن عِزَّتها لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو. (الثاني) أنه أراد أن يظهر أنه في ضبط السياسة والملك يتضع إلى حيث يباشر أدنى

الأمـور بنفسه. (الثـالث) أنه كـان أعلم بأحـوال الخيل وأمراضها وعيوبها، فكان يمتحنها ويمسح سوقها وأعناقها حتى يعلم هل فيها ما يدل على المرض..».

ومما يتصل بالصناعات وفائدتها في الأمم، ما حكاهُ الله عن نبيِّه نوح: ﴿واصْنَعِ الفُلْكَ بأعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾[٢١]:

فهذه سفن الإنقاذ. والأمم كما تحتاج في حياتها إلى سفن الإنقـاذ تحتاج إلى سفن الـدفاع والهجـوم والنقل التجاري وما إليه مما تستدعيه نهضة الأمة وحاجاتها. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الذي سخَّر البَحْرَ لتأْكُلُوا منه لحماً طريّاً وتستخرجوا منه حِليةً تلبسونها، وترى **الفُلكَ** مواخِـرَ فيه ولِتَبْتَغُوا من فضله ولعلَّكم تَشْكُرُون﴾[٢٢]. وإلى أن يتَّصل

---

(٢١) هود: ٣٧.
(٢٢) النحل: ١٤.

المسلمون بتعاليم دينهم، وإرشادات كتابهم، ويفقهوها، ويعملوا بها، سيظلون في عناء من العيش، وضعفٍ من السلطان، ووهنٍ من القوّة، وذلةٍ في الحياة[٢٣].

أما العنصر الثالث: - وهو التنظيم العملي للحرب - فقد تناوله القرآن بأُصولٍ عامَّةٍ من جهاتٍ متعددة:

(١) في أسباب المعافاة من الجندية: ﴿ليسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ولا على المرضى ولا على الذين لا يَجِدُونَ ما

---

(٢٣) ولما كان إعداد القوة متوقفاً على المال، حثَّت آيات كثيرة على البذل في سبيل الله، من ذلك قوله تعالى بعد آية الإعداد ﴿وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفَّ إليكم وأنتم لا تُظلمون﴾ أي: يوف إليكم عن طريق تركيز قوتكم في بلادكم وفتح بلاد أعدائكم ومنه قوله بعد آية القتال في سورة البقرة: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾. والتهلكة تشير إلى تهلكة البخل والشح في الدفاع الوطني.

يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إذا نصحوا لله ورسولِهِ﴾(٢٤) فجعل أسباب المعافاة من الجندية محصورة في الضعف؛ ويتناول الضعف بعجز أو شيخوخة، وفي المرض، وفي عدم القدرة على الإنفاق. ولم ير القرآن أن منها حمل الشهادات العلمية، ولا الانتساب إلى الجامعات، ولا حفظ القرآن الكريم، ولا دفع بدل نقدي، ولا البنوَّة لحاكم كبر أو صغر مما عهدناه في عصور الضعف والانحلال، بل كان العمل في عصر النبي ﷺ والعصور التالية له على عكس هذا. وما كان التفكير في جمع القرآن إلا مخافة أن يذهب بذهاب القرَّاء الذين كانوا أكثر القوم إقداماً وبسالةً في حرب اليمامة، وكان إقدامهم وجرأتهم على اقتحام صفوف الأعداء سبباً في أن يستحرّ

---

(٢٤) التوبة: ٩٢.

القتل فيهم.

(٢) **في إعلان الحرب** ـ أوجبه القرآن، وحذَّر انتهاز غفلة العدو وأخذه على غرَّة: ﴿وإمَّا تَخافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيانةً فانبِذْ إليهم على سَوَاءٍ، إنَّ اللَّه لا يُحِبُّ الخائِنين﴾[٢٥] تأمر الآية بطرح العهد عند توجُّس الشَّرِّ منهم، وتطلب أن يكون هذا النبذُ صريحاً واضحاً حتى لا تكون خيانة من المسلمين لا يحبُّها الله ولا يرضاها.

(٣) **في تلبية الدعوة إلى الجهاد** ـ حذَّر التباطؤ فيها والتثاقل عنها ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا ما لكم إذا قِيلَ لكم انفِرُوا في سبيل الله أثَّاقلتم إلى الأرضِ! أرضيتُم بالحياةِ الدنيا مِنَ الآخِرَةِ! فما متاعُ الحياةِ الدنيا في الآخِرَةِ إلَّا قليلٌ. إلَّا تنفِرُوا يعذِّبْكُمْ عَذَاباً أليماً ويستبدلْ قوماً غيركم

---

(٢٥) الأنفال: ٥٨.

ولا تَضُرُّوهُ شيئاً، واللهُ على كلِّ شيءٍ قدير﴾[٢٦].

ينذرهم إذا هم تثاقلوا عن تلبية الدعوة إلى الجهاد بالعذاب الأليم عـذاب الذل والاستعبـاد، وزوال الملك والسلطان إلى قوم غيرهم.

(٤) في تطهير الجيش من عناصر الفتنة والخذلان:

﴿لَـوْ خـرجـوا فيكم مـا زادوكـم إلاَّ خَبَـالاً، ولأَوْضَعُـوا خِلاَلَكُم، يبغونَكُمُ الفِتنة وفيكم سمَّاعُونَ لهم، واللهُ عليمٌ بالظالمين. لقد ابتَغَوْا الفتنةَ من قَبْلُ وقلَّبوا لَكَ الأُمورَ حتَّى جاءَ الحقُّ وظَهَرَ أمْرُ اللهِ وهم كارهون. ومنهم من يقول ائذَنْ لي ولا تَفْتِنِّي، ألاَ في الفتنة سَقَطُوا؛ وإنَّ جهنَّمَ لَمحيطةٌ بالكافرين. إن تُصِبْكَ حسنةٌ تسُؤْهُم، وإن تصبكَ مصيبةٌ يقولـوا: قد أخـذْنا أمْـرَنَا من قبـلُ ويتولَّـوا وهم

(٢٦) التوبة: ٣٨ ـ ٣٩.

فَرِحُونَ﴾. إلى أن يقول: ﴿لو يجدون ملجأ أو مغاراتٍ أو مُدّخَلًا لَوَلَّوْا إليه وهم يجمحون﴾. وإلى أن يقول: ﴿فإن رَجَعَكَ اللهُ إلى طائفةٍ منهم فاستأذنوكَ للخروج فَقُل: لن تخرُجُوا مَعِيَ أبداً ولن تقاتِلُوا مَعِيَ عَـدُوّاً إنَّكم رضيتم بالقعودِ أوَّل مرَّةٍ فاقعدوا مع الخالفين﴾. وإلى أن يقول: ﴿يحلفون لكم لِتَرْضَوْا عنهم فإن تَرْضَوْا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾[٢٧].

وعليك أن تَتَتَبَّع ما ورد في شأن غزوة تبوك بسورة التوبة لتستخلص الخلال السيئة التي هي عنوان الجندية الشريرة، وستجد فيها مـا يجب التنبُّه لـه وقت التجنيد وإعداد العدَّة القويَّة المخلصة في إحراز النصر والظفر، ثم اقرأ من سورة الأحزاب (١٢ ـ ٢٠) قوله: ﴿وإذ يقول

---

(٢٧) التوبة: ٤٧ ـ ٥٠ ـ ٥٧ ـ ٨٣ ـ ٩٦.

المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ إلى قوله ﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلَّا قليلاً﴾ لتزداد علماً بأوصاف المعوِّقين المخذِّلين.

(٥) **في تنظيم التعبئة**: أشارَ القرآن إلى أن التعبئة تكون على حسب الحاجة، فإذا دعت إلى خروج الجميع خرج الجميع، وإذا كفى البعض اكتفي بخروج البعض، وظلَّ الباقي قائماً بأعماله الداخلية، ومدداً للجيش من ورائه، والأصل في هذا قوله تعالى: ﴿وما كان المؤمنونَ لينفِرُوا كافَّةً فلولا نَفَرَ من كلِّ فِرْقَةٍ منهم طائفةٌ ليتفقَّهُوا في الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم إذا رجعوا إليهم لَعلَّهم يحذرون﴾[٢٨]. وقوله تعالى: ﴿يا أيُّهَا الذين آمنوا خُذُوا حِذْرَكُم فانفِروا ثُبَاتٍ أو انفِروا جميعاً﴾[٢٩].

---

(٢٨) التوبة: ١٢٢.
(٢٩) النساء: ٧٠.

(٦) في تنظيم الجيش وتوزيع وحداته على مواضع الدفاع: انظر عمل النبي في قوله تعالى: ﴿وإِذْ غَدَوْتَ من أهلكَ تَبوِّىءُ المؤمنينَ مقاعِدَ للقتال﴾[٣٠]، ثم تأمَّل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الله يحبُّ الذينَ يقاتِلُونَ في سبيله صفَّاً كأنَّهم بُنيانٌ مرصوص﴾[٣١].

(٧) في السمع والطاعة للقيادة العامة والثبات في المواقف وتجنب أسباب الفشل والاعتصام بالإيمان واليقين: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا إذا لقيتُمْ فئةً فاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللهَ كثيراً لعلَّكم تفلحون. وأطيعوا الله ورسولَهُ ولا تنازعوا فتفشلوا[٣٢] وتَذْهَبَ رِيحُكُم، واصبروا إِنَّ الله مع

---

(٣٠) آل عمران: ١٢١.
(٣١) الصف: ٤.
(٣٢) وإذا رأى الإمام توحيداً للأمة، واتقاء لأسباب الفشل وقف ما جرت به العادة في الأمم من القوانين العامة، ووضع قوانين أخرى لذلك =

الصابرين﴾[٣٣].

(٨) في حكم الفرار من الصفّ. حذَّر القرآن منه، وبيَّنَ سوء عاقبته: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا إذا لقيتُمُ الذينَ كفروا زَحْفَاً فلا تُوَلُّوهُمُ الأدبارَ، ومن يُوِلِّهِمْ يومئذٍ دُبُرَهُ إلاَّ متحرِّفاً لقتالٍ أو متحيِّزاً إلى فئةٍ فقد باءَ بغضبٍ مِنَ الله ومأواهُ جهنَّمُ وبِئْسَ المصيرُ﴾[٣٤].

(٩) في ترتيب الهجوم عند تعدّد الأعداء: طلب القرآن في ذلك أن يبدأ بالأقرب فالأقرب، لإخلاء طريق الجيش مما عسى أن يعترضه من عقبات الأعداء ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا قاتِلُوا الذينَ يَلُونَكُم مِنَ الكفَّار وَلْيَجِدُوا فيكم

= كان حتماً عليه أن يفعله، لأنه أصبح وسيلة للواجب. وهذا هو أصل ما يعرف في العصر الحديث بإعلان الأحكام العسكرية.

(٣٣) الأنفال ٤٥ ـ ٤٦.

(٣٤) الأنفال ١٥ ـ ١٦.

غِلْظَةً واعلموا أنَّ اللهَ مَعَ المتَّقين﴾[٣٥].

(١٠) **في أسرار الجيش**: حذَّر من إذاعتها، وجعل إذاعتها من شأن المنافقين، وطلب الرجوع بها إلى القيادة العامة، كما طلب من المؤمنين أن يتثبَّتوا فيما يصلهم من أنباء قبل الركون إليها والعمل بها، قال تعالى ﴿لئن لم ينْتَهِ المنافقونَ والذين في قلوبهم مَرَضٌ والمرجفونَ في المدينةِ لَنُغْرِيَّنَكَ بهم ثم لا يجاوِرونَكَ فيها إلاَّ قليلاً﴾[٣٦].

وقال: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا لا تَخُونُوا اللهَ والرَّسُولَ وتخونوا أمانـاتِكُم وأنتم تعلمـون﴾[٣٧]. وقـال: ﴿وإذا جاءهم أمرٌ مِنَ الأمنِ أو الخوفِ **أذاعـوا به**، ولو رَدُّوهُ إلى

---

(٣٥) التوبة: ١٢٣.
(٣٦) الأحزاب: ٦٠.
(٣٧) الأنفال: ٢٣.

الرسول وإلى أُولي الأمرِ منهم لَعَلِمَهُ الذينَ يستنبطونه منهم﴾[٣٨] وقال: ﴿يا أيُّها الذينَ آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فتبيَّنُوا﴾[٣٩].

(١١) **في الهدنة والصلح**: أمر القرآن بتلبية دعوة السلم ووقف الحرب إذا جنح إليها الأعداء، وظهرت منهم مخايل الصدق والوفاء: ﴿وإن جنحوا للسَّلمِ فاجْنَحْ لها وتوكَّلْ على الله، إنَّه هو السميعُ العليمُ. وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حَسْبَكَ اللهُ، هو الذي أيَّدَكَ بنصرهِ وبالمؤمنينَ﴾[٤٠].

(١٢) **في الأسر ومعاملة الأسرى**: ﴿ما كان لنبيٍّ أن

---

(٣٨) النساء: ٨٣.

(٣٩) الحجرات: ٦.

(٤٠) الأنفال: ٦١ ـ ٦٢.

يكونَ له أسرى حتى يثخِنَ في الأرض﴾[٤١]. وقد خُيِّر الإمام إذا أثخن في الأرض وحلَّ له الأسر، بين أن يمنَّ عليهم ويطلقهم من غير فِدْيةٍ ولا مقابل، وأن يأخذ عنهم الفدية من مال ورجال، وذلك على حسب ما يرى من المصلحة.. ﴿فإذا لقيتُمُ الذينَ كفروا فَضَرْبَ الرِّقاب حتى إذا أثْخَنْتُمُوهم فَشُدُّوا الوَثَاقَ، فإمَّا مَنَّاً بَعْدُ وإمَّا فداءً﴾[٤٢].

(١٣) **في العهود والمحافظة عليها**: للقرآن عناية خاصة بالمحافظة على العهود. أوجب الوفاء بها. وحرَّم الخيانة فيها، والعمل على نقضها، وأرشد أن يكون القصد منها إحلال الأمن والسلم محلَّ الاضطراب والحرب، وحذَّر أن تتَّخذ وسيلة للاحتيال على سلب الحقوق،

---

(٤١) الأنفال: ٦٧.

(٤٢) محمد:٤.

والوقيعة بالضعفاء، انظر قوله تعالى في سورة النحل: [٩١ - ٩٢] ﴿وأوْفُوا بعهدِ اللهِ إذا عاهدتم ولا تنقُضُوا الأيْمانَ بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً، إنَّ الله يعلم ما تفعلون ولا تكونوا كالتي نَقَضَتْ غَزْلَهَا من بعدِ قوَّةٍ أنكاثاً، تتَّخِذونَ أيمانكِم دَخَلاً بينكم أن تكون أُمَّةٌ هيَ أربى من أُمَّةٍ﴾(٤٣).

---

(٤٣) أنكاثاً: منقوضة. والانكاث جمع نكث وهو نقض الغزل بعد إحكامه، ويشمل نقضه على أن يغزل ثانية وكلمة «دخل» تجمع معاني الغش والفساد والخديعة. وكلمة «أربى» تجمع معنى الزيادة في القوة والمال وسعة السلطان. والآية تحذر من نقض العهود وإبرامها على وجه لا تطمئن إليه نفوس المتعاهدين، فتظل تحت هيمنة القوة التي لا تعرف حقاً ولا سلاماً. وتحذر من اتخاذها وسيلة للاحتيال على استلاب الضعفاء الذين تلجئهم الظروف إلى قبولها. فهذه معاهدات دلت حوادث الزمن على فسادها، وسوء مغبتها ﴿ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله﴾ وانظر بعد ذلك فيما ترشد إليه الآية وانظر ما تقوم به أمم الحضارة الحديثة من معاهدات كانت مصدراً لنكبة العالم. وليعتبر بذلك أولو الأبصار.

(١٤) إذا تبين لـلإمام مفـاسد تلحق المسلمين من جرَّاء المعاهدات وكانت تلك المفاسد تربو على مصالح بقائها وَجَبَ نبذها، ووجب أن يكون نبذها إعلاناً وجَهْرَة. اقرأ قوله تعالى في أول سورة التوبـة: ﴿وأذانٌ مِنَ اللهِ ورسولِهِ إلى النَّاسِ يومَ الحجِّ الأكْبَرِ أنَّ اللهَ بريءٌ مِنَ المشركين وَرَسُولُهُ﴾[٤٤].

هذا ما تيسر لنا في ذلك الوقت أن نستخلصه من آيات القرآن الكريم أصولاً للنظام العملي للحرب. والقرآن الكريم لا تنفد ذخائره، وكلما أمعن الإنسان في إشاراته، وتأمَّل في دلالاته، وصل إلى جديد. وإن خيـر معوان لتفهُّم القرآن الكريم وقائع الكون وحوادث الزمن، فهي أقوى مفسِّر. وأوضح سبيل للوقوف على أغراضه والوصول إلى مبادئه. وإن من يتتبَّع ما جاء فيه عن المواقع الحربية

---

(٤٤) التوبة: ٣.

التي قام بها الرسول. يظفر بشيء كثير من تلك الأغراض والمبادىء التي تضاعف إيمان المؤمنين بأنَّ القرآن لم يكن إلا وحياً يُوحى من عند خالق القوى العليم بطيَّات النفوس.

* * *

التطبيق العملي لأحكام القرآن في القتال

نورد في هذه الخاتمة التطبيق العملي لهذه المبادىء التي جاء بها القرآن الكريم في القتال، على عهد الرسول ﷺ وخليفتيه أبي بكر وعمر، أما فيما بعد فقد انتاب المسلمين شؤون داخلية وخارجية لوت عليهم السبيل في التزام ما شرع الله من نظم وقوانين، ودفعت بهم فيما يختص بالقتال إلى دائرة أوسع مما رسم الله للجهاد في سبيله.

* * *

إن أطوار حياة الرسول ومن معه من المؤمنين قبل القتال ترجع إلى:

(١) الدعوة السِّرِّية التي آمن بها نفر قليل كانت تجمعه وإياهم وشيجة الرحم أو الصداقة التي كشفت عن سموِّ روح النبي ﷺ، وعظمة أخلاقه.

(٢) الدعوة الجهرية الموجهة إلى عشيرته الأقربين ثم الموجَّهة إلى الناس أجمعين.

(٣) دور المساومة وإغراء الرسول على ترك الدعوة في مقابلة ما يشاء من مالٍ أو مُلكٍ أو سيادة.

(٤) دور العنف والاضطهاد، وقد دوَّن التاريخ من حوادث التعذيب ما تقشعر من ذكره الجلود.

(٥) الهجرة إلى أرض الحبشة فراراً بالدِّين؛ وحفظاً للأرواح.

(٦) التدبير والكيد والتآمر على النبيِّ والمسلمين بل على بني عبد مناف عامَّة كي يسلموا الرسول وأصحابه ولا يحموهم من عدوان المشركين، وقد كان من آثار ذلك أن وضعوا الحصار على شِعْبِ أبي طالب، واشتدَّت وطأته على المسلمين، وكاد الأمر - لولا أمر الله - يقضي على روح المقاومة فيهم.

(٧) الالتجاء إلى الطائف، والتماس النجدة من ثقيف، ومقابلتهم للرسول وصحبه بالهزءِ والسخرية وردِّهم على أعقابهم.

(٨) الهجرة إلى المدينة، وقد تهيأت ظروفها بواسطة الوفود التي كانت تقدم إلى النبي ﷺ. وما كان يقوم به من عرض الدعوة على القبائل، وبهذين أخذت الدعوة تسري بما تحمل في طبيعتها من جلال وجمال حتى كوَّنت لنفسها أنصاراً من شباب «يثرب» عاهدوا الرسول على

الموت في سبيل نشرها وحمايتها، وكان من آثار هذه الهجرة أن اشتدَّ غيظ المشركين، وازداد حنقهم على فوات الفرصة التي كانوا يبذلون جهدهم في الحصول عليها للفتك بمحمَّدٍ وأصحابه.

(٩) دور العداوة بين المسلمين واليهود في المدينة. فإنه لم يكد الرسول ﷺ يستقرُّ به المقام فيها حتى ظهر له أن اليهود الذين كان يظنهم أقرب إلى دعوته لأنهم أهل كتاب. ولأنهم كانوا يستفتحون به على المشركين من قبل في حروبهم. ينكرون عليه دعوته ويكيدون له ولأصحابه، فحمله ذلك على أن مدَّ يده إليهم منعاً للفتنة، وعاهدهم على أن يتركهم وما يدينون. وبهذا العهد اطمأنَّ بعض الشيء، ووجَّه عنايته واهتمامه إلى أعدائه الأوَّلين الذين أفرغوا سمومهم بعد هجرته في إخوانه الذين قعدت بهم أحوالهم المادية عن الهجرة، والذين لم ينفكُّوا عن تحيُّن

الفرص للوقوف في صدر تلك الدعوة، وتشتيت أمر القائمين بها.

(١٠) دور التحرش ـ قدر النبي ﷺ أنه إذا لم يعمل على نشر دعوته في المدينة، وهو ما كُلِّف به من ربِّه، لا بدَّ أن يتخذ أعداؤه المكيُّون سبيلاً لمفاجأته والدخول عليه في بلده الجديد، خصوصاً أنَّ اليهود الذين عاهدهم لم يكونوا من الإخلاص بحيث يأمن بقاءهم على العهد، وأنه لا يبعد أن يفسحوا مجال المدينة للعدو الخارجي، وتتَّفق بذلك كلمتهم على مطاردة المؤمنين من المدينة؛ كما طوردوا من قبل، في مكة.

لهذا كله تهيَّأ الرسول وصحبه إلى منابذة خصومه وخصوم دعوته أهل مكة. وأخذ يناوشهم ويظهر لهم قوَّته. وروح العزم على المضي في الدعوة والعمل على نشرها وحمايتها. وعلى إنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء

والولدان، الذين يقولون: ﴿ربَّنا أخرجنا من هذه القرية الظالِمِ أهلُها واجْعَلْ لنا من لدنكَ ولياً واجْعَلْ لنا من لدنك نصيراً﴾ وبهذه الروح بدأ القتال العملي بين المؤمنين والمشركين وحصلت بين الفريقين وقائع ذكر بعضها في القرآن الكريم. وقد كلل الله جميعها بالفتح والنصر المبين.

(١١) اليهود ينقضون العهد ـ لم يستطع اليهود أن يطهِّروا قلوبهم من أدران الحقد والحسد. ولقد كان توالي نعم الله على نبيِّه وأصحابه المؤمنين سبباً في إذكاء نارِ العداوة في قلوبهم حتى دفعتهم إلى نقض العهود التي أبرموها مع الرسول ـ فعل ذلك بنو قينقاع. وبنو **النضير**. **وبنو قريظة**. واندلعت ألسنتهم جميعاً بسبِّ الرسول ومناوأة المؤمنين في وقت ما أحوجه فيه إلى قلَّة الخصوم، وتضييق ميادين القتال.

ولكن هكذا ابتلى الله المؤمنين. فلم يجدوا بُدَّاً من

أن ينبـذوا إليهم عهدهم. وأن يـدخلوا معهم في طـور جديد. طور العداء والمحاربة بعد طور السلم والمعاهدة.

* * *

هذه هي الأطوار التي مرَّت بالـرسول قبـل الهجرة وبعدها. ومنها يتَّضح أنَّ مشركي مكَّة كانوا محاربين للنبيِّ من مبدأ الدعوة؛ وأنَّهم بدأوا بالعدوان؛ وطاردوا المؤمنين المرَّة بعد الأخرى من ديارهم. واستبـدُّوا بالمستضعفين يذيقونهم ألـوانَ العذاب ومـرّ النكال. ويتضـح أن يهود المدينة لم يقاتلهم الرسول إلَّا بعد أن نقضوا عهدهم معه. ووقفوا في وجهه كما وقف المشركون من قبل.

ومن هذا وذاك يتبين جلياً أنَّ الرسولَ لم يقاتِل إلا من قَاتَلَهُ. وإلا دفعاً للظلم. وردَّاً للبغي والعدوانَ. وقضاءً على الفتنة في الدِّين. وهذا هو عين ما قرَّرتـه الآيات الواردة في سبب القتال كما تقدَّم.

* * *

وقد كانت الحروب التي قام بها بعد الرسول ﷺ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. تتميم بناء وَضَعَ أساسه الروم والفُرس بأيديهم في عهد النبي ﷺ. ولم يكن من الخليفتين سوى دفع الشرِّ وتمكين الناس مِنَ النظر في الدعوة. وتأمين المسلمين على دينهم وبلادهم.

وجَّه النبي ﷺ بحكم الرسالة. دعوته إلى ملوك الفرس والروم. فأرسل إلى مَلِكِ الرومِ كتابه المشهور يدعوه فيه إلى الإسلام. ويحمله - إن تولى - إثْمَ الرعيَّة. فلما تُرْجِمَ له الكتاب جمع بطارقته وعظماء دولته. وعرض عليهم كتاب الدعوة. واستشارهم في قبولها. وعندئذ حاصوا حيصة الحمر. وزأروا زئير الأسود. وأظهروا كراهة موقفه من هذه الدعوة. فعاد يلاطفهم ويقول لهم: إنما قلتُ ما قلته لأختبر صلابتكم في الدين والملك. وبذلك نكص على عقبيه، وآثر الملك على الإسلام. ثم أخذ

عظماؤه وبطارقته ينفثون سموم الحقد على الدعوة وصاحبها في قلوب الأمراء والأتباع. وكان من ذلك أن شرحبيل الغساني قابل رسول رسول الله ﷺ إلى أمير بصرى - عند مؤتة - وعرف وجهته وعرف أنه من رُسُلِ محمد ﷺ، فأمر به فَضُرِبَتْ عُنُقَه. وقد قدَّروا أن المؤمنين لا يمكن أن يتساهلوا في عِزَّتهم إلى هذا الحد، فاشتدَّ حذرهم. وحشدوا من الروم ومتنصِّري العرب قوَّة يستأصلون بها أمر محمد. ولما علم الرسول بذلك جهز جيشاً يضعف به من حِدَّة الثائرين عليه، الهازئين بدعوته، وما كاد يصل ذلك الجيش إلى مقتل (رسوله) حتى وجد حشد الروم على قدم واستعداد. فاشتبك الجيشان في موقعة حامية، استشهد فيها ثلاثة من أبطال المسلمبن ولولا مكيدة حربية ألهم الله بها خالد بن الوليد ما نجا من الجيش أحد. ثم تتابعت الأخبار بأنَّ الروم جمعوا

للمسلمين الجموع واعتزموا غزوهم. فتجهز النبي ﷺ، وخرج بجيشه قبل أن يفاجئوه في بلده ولما وصل إلى تبوك وَجَدَهُم قد عدلوا عن فكرتهم، فأقام النبيُّ هناك عدَّة أيام صَالَحَ فيها بعض الأمراء. ثم عاد إلى المدينة يفكِّر في أمر هؤلاء الذين فاتهم النصر بمكيدة خالد بن الوليد، وأنهم لا بد عائدون إلى القتال. فجهَّز جيشاً تحت إمرة أُسامة بن زيد، ولم يكد يخرج هذا الجيش حتى قُبِضَ ﷺ. وتولى بعده أمر المسلمين أبو بكر الصديق فرأى أبو بكر أنَّ الحزم والوفاء والحكمة تقضي بإنفاذ ذلك الجيش الذي أعدَّه الرسول ﷺ ردَّاً لغائلة هؤلاء المعتدين. وتوالت بعد ذلك حروب المسلمين مع الروم حتى فَتَحَ المسلمون بلادهم، ومكَّنوا عباد الله من دين الله.

وكما تجلَّت الروح العدائية من الروم على هذا الوجه تجلَّت أيضاً من الفرس. والفرسُ أشد غطرسة وجبروتاً

من الروم، وكان ذلك حينما بعث الـرسول كتـابه إلى كسرى فمزَّقه ورمى به إلى الأرض عُتُوَّاً واستكباراً وقد بلغ من كبرياء كسرى: أن أرسل لعامله باليمن أن يبعث إلى محمد برجلين جلدين يأتيان به. وفعلاً توجَّها إلى الـرسول وأخبـراه بالمهمـة التي جـاءا من أجلهـا فقـال الرسول: في هذا اليوم: «قُتِلَ كسرى» ولما علم الرجلان صدق الرسول أسلما، وكان إسلامهمـا سبباً في إسـلام عامل اليمـن. ثم انضمت إلى اليمن بلاد البحرين وعُمان وكانت كلها تحت حماية الفرس.

وهنا ظنَّت الفُرسُ أن انتصار المسلمين على الروم لـم يكن إلا لضعف الجيوش الرومانية. فشرعوا في الإغارة على القبائل العربية المجاورة لهم واستغلّوا ملوك الحِيرة في ذلـك فـأمعن هؤلاء في الاعتـداء على المسلمين. وعندئذ سار إليهم جيش المسلمين، ونشبت بينهم الحرب

حتى فرَّ معتمد الفرس إلى المدائن وبذلك خضع ملوك الحيرة للمسلمين وقد أشعل ذلك نار الحقد في قلوب الفرس على المسلمين. وتـذكّروا جبروتهم، وألَّفوا جيشاً لإخراج المسلمين من بلادهم. فدارت رحى حرب بينهم وبين المسلمين زحف في نهايتها المسلمون على بلاد الفرس وبذلك سقط عرش كسرى ودانت لأولياء الله جميع البلاد الفارسية.

* * *

من هذا العرض الوجيز يتبين أن المسلمين في الصدر الأول ما كانوا يفاجئون قوماً بحرب إلا بعد أن يظهر منهم روح العداء ومعارضة الدعوة والوقوف في وجهها، والتحقير من شأنها. وأنَّهم كانوا متى تبيّن لهم ذلك الروح العدائي وأيقنوا بخطره عليهم وعلى الدعوة سارعوا إلى إخماده والقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره ويمتدّ

شرّه، وما كانوا ينتظرون حتى يهاجمهم العدوّ في بلادهم. وذلك جرياً على القاعدة الاجتماعية الفطرية: «ما حورب قومٌ في عقر دارهم إلا ذُلُّوا» ومع هذا كان من تعاليمهم إذا وصلوا إلى أرض العدو الذي عرفوا عداءه أن يخيِّروه في واحد من ثلاثة: الإسلام، أو الجزية، أو القتال، وذلك رجاء أن يعود إلى نفسه، ويراجع قلبه فينتزع منه بالحكمة روح العداء والمخاصمة. اقرأْ إن شئت قوله عليه الصلاة والسلام، من وصاياه لأمراءِ جيشه «إذا لقيتَ عَدوَّك من المشركين فادْعُهُم إلى إحدى خصال ثلاث» لتعلم أن روح العداء سابق على إنفاذ الجيش وأن التخيير لم يكن إلا بدافع الرجاء في السلم والعدول عن روح العداء.

وكما يتبين هذا من ذلك العرض يتبين أيضاً أنَّ الحروب التي قام بها المسلمون في الصدر الأول لم تكن

بقصد إكراه الناس على الدِّين ولا بقصد تسخير الشعوب وإذلالها، ولا بدافع الطمع في المال وسعة الملك والسلطان.

وإنه ليجدر بالناس أن يرجعوا إلى تشريع القرآن في معاملة من لا يدينون بالإسلام من أهل العهد والذِمَّة كما يجدر بهم أن يقرءوا سيرة الخلفاء الراشدين والأمراء العادلين مع الذين لا يدينون بالإسلام. وسيعلمون عن حجَّة وبيِّنة، لا عن ظنٍّ وتخمين - مقدار سماحة الإسلام في معاملة رعاياه من غير المسلمين ومحبَّته للسلم العام، والتضامن الإنساني، سيعلمون مبلغ السموّ في تشريعه الإنساني العام الذي جذب قلوب الناس إليه عن طوع واختيار، والذي عاش في كنفه غير المتديِّنين به قروناً متطاولة. لا يشكون ضيماً، ولا يبخسون حقاً[1].

---

(١) لخصت هذه الخاتمة من محاضرة ألقيت بجمعية الشبان المسلمين بالقاهرة وطبعتها المطبعة السلفية سنة ١٣٥٢ هجرية.

ولعلّ القارىء ـ بعد هذا ـ لا يخالجه شكّ في أنَّ القرآن والعمل النبوي متضامنان على تقرير نظرية القتال على الوجه الذي تضمَّنته هذه الرسالة. ونـرجو من الله سبحانه أن يهيئنا للقيام بما يوجبه علينا الدِّين من التبليغ لأحكام الله وهدايته، التي تكفل للمسلمين العِزَّ والكرامة، إنه سميع مجيب.

التنضيد الالكتروني

سربيه كمبيوتر برس
SERBEIH COMPUTER PRESS

بيروت ـ لبنان ـ البسطة التحتا. ٣١٨١٨١ ـ ٢٧١٩٠٨

محتويات الكتاب